سـورة الأعراف

– نبدأ فى التفسير من أول سورة الأعراف وهذه السورة سورة مكية : وهذا يعنى على أرجح التفسيرات وعلى أرجح الآراء الإصطلاحية فى معنى المكى والمدنى

أن المكى ما نزل قبل الهجرة وأن المدنى ما نزل بعد الهجرة حتى وإن نزل بغير المدينة . فالمكى ما نزل قبل الهجرة وإن لم ينزل بمكة والمدنى ما نزل بعد الهجرة وإن لم ينزل بالمدينة .وهذا التقسيم هو أضبط التقسيمات فى التفريق بين المكى والمدنى ..

وللقرآن المكى مواصفات من أهمها :

١ـ أنه يركز على جانب الإعتقاد ، وقليل الأحكام ، وكثير الفواصل .

٢ـ يتحدث عن الإيمان أكثر من الحديث عن التشريع ، بل يكاد التشريع يكون نادرا أو قليلا جدا فى هذا القرآن وهذا فى حقيقة الأمر ما أحوجنا إليه لتطهر هذه القلوب ، ولتأصّل آية آية مع كتاب الله جل وعلا فنستشفى بهذا القرآن من أمراضنا الظاهره والباطنة فالقرآن كما تعلمون كله شفاء بأذن الله جل وعلا .

سورة الأعراف سميت بهذا الاسم ؛ لذكر الأعراف فيها . والأعراف – كما سيأتى معنا – هى أعراف السُّور . (الحجاب الذى ضرب بين الجنة والنار) أو : الشرفات العاليه لهذا السور .

مقصد السورة العام :

أنها تركز على سنة الصراع بين الإيمان والكفر وعاقبة من اتبع الرسل ، وعاقبة من عاداهم ، وهذا من لوازم معرفة التوحيد والإيمان به ومن لوازم مضادات هذا التوحيد والبعد عنه عياذا بالله ، فإن القرآن كله حديث عن التوحيد ، وحديث عن الله وأسماءه وصفاته وأحكامه الكونيه والشرعية وكلامه عن القدر وما يسيّره الله جل وعلا فى هذا الكون والقرآن يحدثنا عما يضاد هذا التوحيد من الكفر وأقوال أهل الكفر ويذكر أمثلة للمؤمنين وأمثلة للكافرين ويذكر جزاء الموحدين ويذكر جزاء الكافرين .

– ولذلك من أحد التفسيرات لقول الله تعالى (مَّثَانِيَ) أنه كلما ذكر حال أهل الجنة ثنّى فذكر حال المعرضين من أهل النار عياذا بالله جل وعلا .

– السورة تستعرض هذا الأمر من أوله إلى أخره ، تأتى من أول خلق آدم عليه السلام ، ثم تتحدث عن مشهد الآخرة ، والمحادثة بين أهل الجنة وأهل النار ثم تبدأ فى ذكر الأنبياء والمرسلين واحدا تلو الأخر، تبيّن كيف دعوا قومهم وكيف رد قومهم عليهم وكيف كانت نجاة المؤمنين بالنجاة فى الدنيا وما هو مصيرهم فى الآخرة ، وتتحدث عن أهل الكفر ، وكيف أن الله جل وعلا نوّع عقوبتهم جزاءًا من جنس عملهم إلى آخر هذه الأمور ..

يقول الله جل وعلا بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(المص)

والله جل وعلا ذكر فى هذه السورة كما ذكر فى غيرها من السور البادئة بما يسمى بالحروف المقطعة وقد تناولها العلماء كثيرا

– وأقرب الأقوال لهذه الحروف المقطعة : أنها حروف ذكرت للإعجاز والتحدى وأن الله جل وعلا يقول يا معشر العرب يا فصحاء العرب قد أتينا لكم بكتاب هو من لغتكم وهو من هذه الحروف فإذا أستطعتم أن تأتوا بمثله ، فأتوا .

– والدليل على هذا الإختيار: أنه ما من سورة ذكرت فيها هذه الحروف المقطعة إلا أُتبعت بذكر القرآن أو صفة من صفاته . فمعنا هنا فى هذه السورة قال (المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ) وهذا يدلل ولو تتبعت كل السور لوجدت ما ذكرته لك .

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

كِتَابٌ :أى القرآن ، فهو كما هو قرآن يتلى فهو كتاب مكتوب والكتب بمعنى الضم فهو مكتوب من حروف أنتم تروها عندكم فى المصحف .ضم بعضها إلى بعض وضمت السورة إلى السورة وضمت الآية إلى الآيه فهو كتاب بهذا الأمر وسواء كان قرآن أو كتاب فهما بمعنى واحد .

– أُنزِلَ إِلَيْكَ : أى أنزله الله جل وعلا إليك أيها الرسول

فلا يكن فى صدرك حرج يعنى لا يكن فى صدرك ضيق ولاشك منه

لماذا أنزله الله؟

– لِتُنذِرَ بِهِ : والإنذار هو إعلام بشىء مخوف

– لِتُنذِرَ بِهِ : من سيترك هذا القرآن ليجحد به ليضاد دعوة التوحيد أنت تنذره تخوفه بعاقبته فى الآخره عياذا بالله جل وعلا لتخوف به الناس وتقيم به الحجة

وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ : أى تذكرهم بما ينتفعون به ، ولذلك قال تعالى (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) ، فإذا حصل التدبر والتفهم لمعانى القرآن يقع التذكر والإتعاظ للقلب . – قال تعالى : (وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ) : لماذا لم يقل وذكرى للناس ؟؟

– لأن أهل الإيمان هم المنتفعون به لأنه – كما سيأتى معنا – أن هذا القرآن ينزل على أهل الإيمان فيزدادون به إيمانا ، وينزل على أهل الرجس والريب فيزدادون رجسا إلى رجسهم عياذا بالله جل وعلا .

(اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

هنا أمر بالإتباع ونهى عن الإتباع فأمر بإتباع الحق وهو اتباع ما أُنزل إلينا من الله جل وعلا من الكتاب والسنة فإذا سُئلت من تتبع ؟ تقول أتبع ما أوحاه الله جل وعلا إلى نبيه . وما هو الذى أوحاه ؟ الكتاب والسنة .

(اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا) نهى عن الإتباع ، ولكن إتباع من؟ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ : أى لا تتبعوا أهواء من تروهم أولياء من شياطين أو أحبار سوء يتولونهم تاركين ما أُنزل عليكم لأجل ما تمليه عليهم أهواؤهم .

وهذا الكلام يؤصل لنا أمر ، وهو: أنه إما أتباع الآيات أو إتباع الأهواء فمن ترك الكتاب والسنة أتبع هواه .

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

فإما شريعة من الأمر وإما أهواء .فإذًا : كل ما يضاد الكتاب والسنة فهو من الأهواء التى ينهى عن أتباعها .

(وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ)

كم : هنا كم الخبريه التى يقصد بها الكثرة ، يعنى وكثيرا أهلكنا القرى المكذبة .

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا : أى بعذابنا فجائها ذلك العذاب الشديد . فَجَاءَهَا بَأْسُنَا : البأس العذاب الشديد – بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ : بياتا وقت البيات وهو الليل ، أو هم قائلون وقت القيلولة وهو النوم نهارا .

ولماذا هذان الوقتان ؟ لأنهما أوقات غفلة ، فإذا نزل العذاب بهم فى هذا الوقت فلا يستطيعون رده ولا دفعه ولا تستطيع الآلهه المزعومة عندهم أن تدفع عنهم أو ترد .حين ينزل العذاب أين هذه الآلهه للصد والدفع ؟!

لم يحدث من ذلك شيء ؛ لتعلم أن الذى اتبعوه كان هوى لا حقيقة له .

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(٥))

دَعْوَاهُمْ : أى دعاؤهم إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا : أى عذابنا الشديد

إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ : فاعترفوا بذلك حال نزول العذاب أنهم كانوا ظلمة ، ولكن هذا لا ينفعهم فإن الاعتراف او الإيمان فى هذا الوقت لا ينفع إذا نزل العذاب ، وإذا بلغت الروح الحلقوم ، وإذا خرجت الشمس من مغربها .. ثلاث أوقات لا ينفع فيهم الإيمان ولا تنفع فيهم التوبة ، نسأل الله أن يتوب علينا ..

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ : أى فما كان منهم بعد نزول العذاب إلا أن أقروا على أنفسهم بالظلم والكفر بالله عياذا بالله جل وعلا .

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ(٦))

فلنسألن : اللام يسمّيها أهل العلم اللام الموطئه للقسم ، كأن الله أقسم أن هذا سيحدث . ما هو ؟

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ) وذلك أيضًا فى سورة القصص قال تعالى (مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ) كما فى قوله فى المائدة (يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ) فيقع السؤال للمرسل والمرسل إليه ، هذا يُسأل وهذا يُسأل .

.

" فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧)"

فَلَنَقُصَّنَّ: القص بمعنى الإخبار والإنباء أى : لنخبرنهم ولذلك من الأخطاء الشائعة فى سورة يوسف عليه السلام فى قول الله تعالى (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ) القصص هنا بمعنى الأخبار أى أحسن الأخبار وليس القصص مفردها قصة وهى الحكاية وهو هنا مصدر قصَّ قصصا وليس هو جمع قصة فالله جل وعلا يقول :

بِعِلْمٍ : أى لنخبرنهم بأعمالهم التى عملوها وكنا بها عالمين.

وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ : أى لا يغيب عنا منها شيء وما كنا غائبين عنهم فى أى وقت من الأوقات ولذلك الأعمال – أعمال العباد– يسطروا تماما . كما قال الله تعالى (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أنت الذى تكتب نسختك بعملك بقولك بإعتقادك بتركك أنت تكتب هذا الملائكة ما عليها إلا أن تستنسخ هذا فقط ، والله جل وعلا يعلم ذلك .

وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ : بل الله يعلم وهو عليم بذات الصدور ويعلم السر وأخفى والملائكة معك تقيد وتسطر وتنسخ كل ما تفعله .

" وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٨)"

أى وزن الأعمال

– وفى الحقيقة أن الوزن ورد بثلاث صور منها :

١– وزن الأعمال ٢– ومنها وزن الصحف ٣– ومنها وزن الشخص بنفسه .. والثلاثه ثابته بالسنة .

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ : أى بالعدل الذى لا جور معه ولا ظلم.

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ: أى رجحت كفة ميزانه بالحسنات عند الوزن.

فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ : المفلحون بمعنى الذين فازوا بمطلوبهم وفروا من مرهوبهم . فالمفلح هو الذى فاز بمطلوبه وفرّ من مرهوبه وأعظم مطلوب هو الجنة وأعظم ما فى الجنة هو رؤية الله جل وعلا، نسأل الله لى ولكم ذلك وللمسلمين وأعظم مرهوب يُفرُّ منه هى النار عياذا بالله جل وعلا، فمن ثقل ميزانه فإنه المفلح الفائز – نسأل الله أن نكون منهم – .بعض أهل العلم يذكر أن المفلحون أصلها من فَلْح الأرض وهو: شقها يقولون أن المفلح هو من يشق الصفوف فى الآخره ليدخل الجنة ولذلك يسمون الفلاّح بذلك لأنه يشق الأرض(يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) الكفار هم الزراع أى الفلاحين لأنهم يغطّون الزرع فسمّى كافرا بذلك لغة .

" وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)"

ومن خفّت موازينه : أى خفت موازين حسناته ورجحت موازين سيئاته – عياذا بالله . فأولئك يلوموا أنفسهم كيف خسروها بإيرادهم أنفسهم موارد الهلاك يوم القيامة وحرمانهم من النعيم.

" ألا إن الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ "

فأولئك الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ : أى يظلمون بالآيات والفعل هنا ضُمّن فعل أخر

يعنى كلمة الظلم فى أصل وضعها اللغوى بمعنى النقص وهو أنهم ظَلموا بالآيات بمعنى : لم يصلوا بها إلى حدها المطلوب فالظلم عُدى هنا بمعنى جحدوا، ظلموا بها أى جحدوها وأنكروها . ولذلك التعدية أو التضمين باب عظيم من أبواب التفسير .

فالتضمين : هو أن يؤدي فعلٌ معنى فعلٍ آخر ويعمل عمله، مثل قوله تعالى " عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا " فالعين هي عين الماء الجارية ، فقال " يشربُ بها " ، فهل هم يشربون بالعين ؟!!

بالطبع لا، ولكن لما عُدّي هذا الفعل " يشرب " بحرف جر لا يلزمه في الأصل ، أدّى معنىً آخر ، وهو معنى الشُرب ، ومعنى الريّ ، والمعنى أي : يشربوا حتى الريّ .

* ويقول تعالى " ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ "

– فنحن في الشائع نقول : سأل عنه ، لكن هنا : سأل إلى ! – تعدّى الفعل " سأل " بحرف جر ليس من أصله " إلى " ... إذًا ضُمّن معنى آخر ، أي : بضمها إليه .

" وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)"

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ: أي مكنّا لكم في الأرض، والأرض كما تعلمون كروية ومع ذلك هي مبسوطة وفيها مياه وأنهار ، ووضع الله جل وعلا فيها الجبال الرواسي حتى لا تميد، فهذا تمكين لنا لنعيش في هذه الأرض .

" وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ " : أي أسبابًا للعيش، فكان عليكم أن تشكروا نعمة الله عليكم ، ولكنكم،

" قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ " فالشكر قليل، والشاكرون أيضا قليل، كما قال تعالى " وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ "

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ(١١))

– الراجح في هذه الآية أن الكلام كله لآدم عليه السلام ، وأن المقصود بقوله " وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ " أي : خلقنا أباكم آدم " ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ " أي صورناه ، ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا له بعد خلقه وتصويره .

– ولكن هنا سؤال : لماذا الخطاب لنا ؟

– لأن وجود الأصل ، هو وجود للفرع ، فبوجود آدم عليه السلام وُجِدت الذرية ، فكأنهم بخلقه صاروا في حكم الموجود .ولذلك بعض أهل العلم ، مثل ابن جرير وغيره يقول : أنه خطابٌ موجّهٌ إلى الخلف الموجود (أنتم) ، والمقصود السلف المعدوم (آدم عليه السلام) .

– ورد مثل ذلك في آية سورة البقرة " وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ "، هنا من الذي اعتدى ؟ هل هم اليهود الذين كانوا على عهد النبي أم سلفهم ؟ الذين اعتدوا هم سلف اليهود ، ولكن الخطاب كان للخلف ؛ لأن آبائهم فعلوا ذلك ، وهم أيضًا فعلوا ذلك ، فكأنها سُبّة لهم .

– وهذه القاعدة تُعينك في الكثير من آيات القرآن، كما في قول الله " هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ".

– فالسؤال هنا : أيهما أولًا خلق الأرض أم خلق السموات ؟

– الأرض خُلقت أولا غير مدحوّة (أي بلا إخراج ماء ومرعى)، ثم خُلقت السموات، ثم دُحيت الأرض؛ بدليل قوله تعالى " وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا " أي بعد خلق السماء .

ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا : أي على سبيل الإكرام له.

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ : أي فامتثلوا وسجدوا إلا إبليس ، أبى أن يسجد تكبرًا وعنادًا.

لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ : هنا قال سبحانه " لم يكن من الساجدين، وفي مواضع أخرى قال " فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ "

– فهل إبليس كان من الملائكة ليستثنيه منهم ؟

الجواب : نقول أن هناك أنواع للإستثناء :

١– هناك استثناء متصل : مثل جاء القوم إلا مُحَمَّد، فـ مُحَمَّد من القوم.

إذًا الإستثناء المتصل : أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه.

٢– وهناك استثناء منقطع : وهو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه مثل : جاء القوم إلا بعيرًا

– وهنا في هذه الآية الإستثناء ، هو استثناء منقطع؛ لأن إبليس لم يكن من الملائكة ، بدليل قوله تعالى في سورة الكهف " إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ "

– وأيضًا لماذا قال الله في هذه الآية " فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ " ، مع أن ال في لفظ الملائكة تفيد الإستغراق والشمول والعموم فهي كافية ؟!

– نقول أن كلمة " كلهم " أتت لتأكيد أنهم لم يتخلف واحد منهم عن السجود وكلمة " أجمعون " أتت للدلالة على أنهم سجدوا مرة واحدة امتثالًا لأمر الله على الفور وليس تتابعًا .

" قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(١٢)"

قَالَ مَا مَنَعَكَ: أي ما أحوجك واضطرك لعدم السجود ؛ لأنه كان بسببًا من نفسه ؛ لأنه أبى واستكبر .

أَلَّا تَسْجُدَ: العلماء يقولون أن " لا " هنا تسمى لا الصلة ، تأتي لتأكيد المعنى المفهوم من الفعل ، واستدلوا على ذلك بقول الشاعر : تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابةٌ * * * وكاد صميمُ القلب لا يُقطع

– فـ " لا يُقطعُ " هنا بمعنى أن يتقطّع .

إِذْ أَمَرْتُكَ: فيها دليل على أن الأمر للوجوب ؛ لأن الله عاقبه على مخالفته .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ: قال ذلك ردًا على أمر الله بقياسٍ فاسدٍ من قِبَلِ نفسه، ففاضل بين أصل خلقه وأصل خلق آدم ، وعمى – لعنه الله – عن فضائل آدم .

– قال ابن كثير – رحمه الله – : الطين أفضل من النار حقيقة ، فإن الطين مصدر الإنبات والحياة ، والنار مصدر الهلاك ، والنار من خصائصه االطيْش وأما الطين فالأصل فيه الرزانة .

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ: هذه الكلمة فيها أمراض كثيرة ، مرض الكبر والإنتفاش بما لا يُنتفَش به ، وفيها العجب أنه يرى محاسن لنفسه ليس لها حقيقة ، كمالات موهومة ، وفيها عياذً بالله الإباء الذي هو رد لأمر الله والإستعلاء عليه وفيها سب لله، كأنه يقول لله بلسان قوله وحاله أن الله ليس حكيما، فكيف تأمرني لأسجد لمن هو أقل مني ؟! – عياذًا بالله .

" قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣)"

الصَّاغِرِينَ: الحقيرين الذليلين، وكل من أراد أن ينتفش بالباطل فشأنه إلى الحقارة والصغار .

* ولذلك في الحديث " أن المتكبرين يبعثون يوم القيامة كالذر في صورة الرجال " . ولذا يقولون أن أول من قاس قياسًا فاسدًا هو إبليس ؛ ولذلك حرّم أهل العلم القياس ، ونُعى على القياسيين بسبب هذا الأمر ؛ لأن هذا فعل إبليس وكان قياسه فاسدًا .

" قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٤) "

فطلب من الله الإمهال إلى يوم البعث . وفي هذا دليل على أن الكفار قد يعلمون بعض الأمور ولا ينفعهم ، فإبليس كفار لعين ومع ذلك يعلم أن هناك إله وأن هناك يوم بعث وحساب ... إلخ

– وبعض الناس من الذين يسوغون لمسائل " المؤمنون من أهل الأديان " ومبنى كلامهم على أن هؤلاء يعلمون أن هناك رب ويؤمنون به ... فنقول لهؤلاء ولكنهم لا يؤمنون بالنبي ويكذبون بالقرآن ... فماذا نسميهم ؟؟؟

مؤمنون مسلمون ؟!! بالطبع لا ! فلو أن رجلًا يقيم الليل ويصوم النهار ويتصدق بفضل ماله ، وهو يعلم أنه يصرف عبادة لغير الله ومع ذلك يفعلها ، فما حكمه ؟ هذا كافر ، فعبادته هذه لا تُغنِ عنه شئ ، ومعرفته بكل هذا لا تُغنِ ، ومن أجل ذلك كان الشرك من أخطر الذنوب ، لماذا ؟ لأنك قد تفعل أعمال كثيرة تضيعُ كلها هباءًا بسبب وقوعك في الشرك .

(قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥))

أي يُنظر إلى يوم القيامة حتى النفخة الأولى التي يموت فيها كل الخلائق ويبقى الله جل وعلا وحده ، يقول : لمن الملك اليوم ؟.. وفي قوله إنك من المنظرين ؛ إفادة أن هناك من يُنظَر غير إبليس ، كملك الموت يموت وقت النفخة ، وكالملك الذي ينفخ في الصور يموت مع النفخة ، فكل هؤلاء من المُنظرين .

" قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) "

– يقول اللعين بسبب إضلالك إياي حتى تركتُ امتثال أمرك بالسجود لآدم ، لأقعدن لبني آدم على صراطك المستقيم ولأصرفنهم ولأضلنهم كما ضللتُ أنا عن السجود لأبيهم آدم ، لما طُرد اللعين من الجنة بسبب عدم السجود لآدم ، اعتقد أن هذا هو السبب ، وليس أن السبب الحقيقي هو كبره وإباءه وعدم امتثاله أمر ربه !

– فلما خرج منها عادى آدم هذه العداوة الشديدة ، وعادى ذريته من بعده . ولذلك قال الله تعالى مذكّرًا لنا " إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا "

– وايضًا في الحديث الذي في مسند الإمام أحمد ، من حديث سبرة بن أبي فاكِه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ؛ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟ فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ "

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي: هذا فيه دليل على أن أول جهمي ظهر كان إبليس ! ومذهب الجهمية الأوائل في القدر هو أن الأمر جبريّ، والأمر ليس كذلك، بل إن الله جل وعلا ترك هدايته، لماذا ؟ لأنه كفر ابتداءًا، فلم يكن أهلًا للهداية، فهو سبحانه حكيم يضع الشئ في موضعه، كما قال تعالى " بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ "، وكقوله " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ " إذاً هم ليسوا أهلا للهداية ، فلم يوفقهم لها لإنهم ليسوا محلّا لها .

– أما هؤلاء الجبريون فيحتجّون بالقدر ، ولذلك قال بعض أهل العلم : لا تكن في الطاعة قدريّا ، وعند المعصية جبريّ " أيّ أيُّ مذهبٍ وافق هواك تمذهبت به ! "

(ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(١٧))

ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ : أي أزهّدهم في الآخرة وأرغّبهم في الدنيا .

وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ : أحسّن لهم الشهوات ، وارسي لهم الشبهات وأُضعفهم في إرادة الحق.

وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ : أي موحدين .

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨))

المَذْؤُوم: المعيب المذموم، والذءم: أشد العيب . – المدحور: المطرود من رحمة الله جل وعلا.

" لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ " هنا حدث تغاير في الضمائر ... لماذا ؟؟

لما صار بعض بني آدم على طريقته ومنهجه ، صاروا كأنهم منه ومعه في مصيره .

– ثم أمر الله آدم فقال:

(وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

اسكن: السكن هنا بمعنى الإقامة ، وليس السكون .

الجنة : معناها لغة : الحديقة الملّتفّة الأغصان .

*وسميت جنّة ؛ لكثرة ما فيها من أشجار يستجنّ بها المرء ، أي : يختفي بداخلها . ولذلك سمي الجنين جنينًا ؛ لأنه يستتر ولا يُرى، وسمي الجن جنًا ؛ لأنهم لا يُرون.

فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا: أي كلا من الطيبات من حيث شئتما، بدليل قوله في الآية الأخرى (رغدًا) يعني هنيئًا سهلا.

وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ: فأمرهما بالأكل من الطيب ، ونهاهما عن شجرة عيّنها الله عز وجل لهما.

* ولكن ما هي هذه الشجرة ؟؟ سكت القرآن والسنة عن ذلك ، والمذهب عندنا في التفسير " وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ "

ـ فتكونا من الظالمين : يعني إن أكلتما منها بعد نهيي لكما عن الأكل منها، فتكونا قد تجاوزتما حدود الله جل وعلا.

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠))

فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ: الوسوسة معناها الصوت الخفيّ، أي كلمهما بصوت خفي.

والوسوسة: هي صوت وقع الحُليّ بعضه على بعض.

لِيُبْدِيَ لَهُمَا: أي ليُظهر لهما.

مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا: أي ما سُتر عنهما من عوراتهما.

وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ: أي عن الأكل منها.

إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ: أي هل تعلمون ما هو سبب النهي والعلة ؟ هي ألا تكونا من الملائكة، وكذلك ألا تكونا من الخالدين . فعلل النهي بعلة ليست هي بعلته ، بل سوّغ وروّج عليهما الوسوسة ، وإنما العلة من النهي ، إنما هي النهي ، لماذا لا تفعل ؟؟ لأن الله نهى.

– والقاعدة تقول : كل علة يعلل بها ، تأتي بالنقض على أصل الحكم ، فهي علة باطلة والعلة تثبت إما بالنص أو بالإجماع حتى نقيس عليها ، أما غير ذلك فهي علة باطلة .

– وهذا هو أول مدخل من مداخل إبليس اللعين وتلبيسه " تزيين الباطل في صورة الحق لتقبله النفوس ، ومزجه بشئ من الحق، لأن النفس لا تقبل الباطل المحض " وهذا ما يفعلونه اليوم ، يلبّسون الباطل ثوب الحق

– فمثلا ربا البنوك يسمونه " فائدة " – الكفر يسمونه حرية الفكر – الغناء يسمونه الطرب، التبرج يسمونه موضة وشئ جديد ... وعلى ذلك فـ قِس .

– بدأ إبليس –عليه لعنة الله– الهجوم علي آدم –عليه السلام– بطريقين.. وهذه المداخل لو تعلمناها وعرفناها لأمنّا مكره....

الطريق الأول: وهو طريق المخادعة ، أنه يقلب الباطل في صورة حقٍ فتستسيغه النفوس فإن النفس لا تقبل الباطل المحض ، ولكنها إذا مُزج لها الباطل بشئ من الحق قبلته واستساغته فهنا وسوس لهما ، ومقصوده الأساسي هو أن يبدي العورة التي بإظهارها ينقص حال الإنسان ؛ لأن آدم عليه السلام هو أفضل منه ، فظن البائس أنه طرد من الجنه بسبب آدم ، فعاداه، ليس بسبب كبره وإباءه ورده أمر الله والعياذ بالله . فأراد أن يُظهر آدم في صورة شخص عنده نقص ، حتي يُشفي صدر هذا المجرم...واتخذ لذلك أول طريق الوسوسة ، وذاك بتزيين الباطل في صورة الحق وأخرج لهما علةً عليلة أتت بالنقض علي الأصل قال : " مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ .."

"إلا أن تكونا" أي : لئلا تكونا ملكين ولئلا تكونا من الخالدين، هل هذا الأمر هو علة النهي...؟؟

الجواب قطعا لا، إنما هو أراد أن يلبّس علي الأبوين، فوسوس لهما، أي : لآدم ولحواء وهذا هو الظاهر .

فوسوس لهما، بماذا.. ؟ بتعليل النهي، فهو يقول لآدم عليه السلام : لماذا نهاك الله ...؟

" نهاك حتي لاتكونا ملكا وحتي لاتكونا من الخالدين.. " .... وهل يكره الله تعالي أن يكون آدم خالداً..؟ !

الجواب ..لا.. وهل يكره الله تعالي لآدم أن يكون ملكا؟ ! الجواب ..لا.. فإن الله خلق الجنه وهي تخلُد ، خالدة، لا تفني ، وخلق الملائكة وهو يحبهم سبحانه وتعالي ،فعلل له بهذه العلل العليلة ليس هذا فحسب، بل :

"وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ (٢١)"

وَقَاسَمَهُمَا: أي حلف لهما بالله إنه لناصح لهما فيما أشار به عليهما .

إذاً : فالسبيل الأول هو قلب الحقائق... قلب الباطل في صورة الحق.

السبيل الثاني : أنه اقسم لهم... وآدم عليه السلام ماكان يظن أن هناك أحد يقسم بالله كاذبا ولذلك عندنا في شريعتنا من حلف لكم بالله فصدقوه ، فنحن مأمورون إذا حلف لنا حالف أن نصدقه ، ولكن يستثني من ذلك :

١– من عُلم كذبه باتفاق...فهذا يستثني ، هذا إنسان كذاب ، كما في الشيطان "صدقك وهو كذوب" فحاله أنه كثير الكذب فلايصدق .

٢– الأمر الثاني... لا نقبل حلف من حلف علي شئ خلاف الظاهر والواقع والحقيقة يعني : من جاءنا فحلف أنه ليس هناك شمس نصدقه؟! ونقول الدليل من حلف لكم بالله فصدقوه؟ ...لا...لأن هذا خلاف الواقع وخلاف العقل ، فإذاً لايصدق إلا من كان محلاً لأن يصدق أما غير ذلك فلايُقبل .

فغرّ آدم –عليه السلام– بحلفه.

(فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢))

فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ: أي : أنزلهما وحطهما عن منزلتهما التي كانا فيها بخداع منه وغرور، ولذلك سماه الله تعالي بذلك لأنه فاعل له، فقال "وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ" .... فهو غَرور وهو وسوَاس فهذا الشيطان بعينه بنفسه، وفعله الوسوسة والغرر والغرور ، يغر الإنسان ويخدعه –عياذا بالله جل وعلا–

قال: "فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا" انكشفت السوءه (العورة) وأصبحت ظاهرة مكشوفة.

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ: بمعنى: جعلا يلصقان عليهما من ورق الجنة . .يخصفان يعني : يضعان أوراق الجنة عليهما .

– وهذا يدلنا علي شئ: وهو أن سبيل الشيطان الأول هو إظهار العورات لأنه سبيل لكل شر ولذلك نحن لانتعجب أن تكون هذه الحمله الشرسة علي المجتمعات المسلمة بالأفلام الإباحية والمسلسلات الماجنة والأغاني الهابطة ، لماذا كل هذا الآن؟! هذا هو سبيل الشيطان.

" لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا " فيظهر العورات، هذا مقصوده لماذا...؟

لأنه إذا ظهرت العورات انتشر كل شر في المجتمع –عياذاً بالله جل وعلا–

"وَنادَاهُما رَبُّهُما أَلَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ"

أي : عدو ظاهر العداوه كما بينت ولكن الإنسان ينسي ولذلك قال النبي _صلي الله عليه وسلم_ في الحديث : "نسي آدم فنسيت ذريته ، وجحد آدم فجحدت ذريته". . . .وسمي الإنسان بهذا الإسم ؛ لأنه ينسى ... نسي هذه العداوة مع أنها عداوة معلومة ، لكن كما قلتُ دخل عليهما من طريقين : أنه يحلف ، وأنه يقلب الباطل في صورة الحق ، أنه ناصح لهما . وإذا أردت أن تعرف سبيل هؤلاء فانظر في وسائل الإعلام اليوم ؛ لتجد هذه النوعيه أمام عينيك ، وتتذكر حديث النبي –صلي الله عليه وسلم–" قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس"

– لكن ينبغي أن نأخذ حذرنا، وينبغي أن نعلم أنهم مايقصدون بنا إلا الإتلاف، حتي ولو أقسموا أنهم لمن الناصحين أو المصلحين ، فتبيّن لنا حالهم بفضل الله في كلماتهم وأفعالهم ومايريدونه –عياذا بالله جل وعلا–

(قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٢٣))

قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا: أي أن آدم وحواء اعترفا بالذنب وهذا هو فعل من كان متبعاً لآدم –عليه السلام – أنتم رأيتم الجبري الأكبر إبليس –عليه لعنة الله– لما تعلل بالقدر ، وأثبت هذا المذهب – مذهب الجبري – وقال: " فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي"، فنسب هذا الأمر إلي قدر الله والعياذ بالله . وحاله كحال الشاعر الذي يقول:

أَلقاهُ في اليَمّ مَكتوف اليدين وَقالَ --- إيّاكَ إيّاكَ أَن تَبتَلَّ بِالماءِ .

– أما آدم –عليه السلام– فقد اتخذ السبيل الأرشد، وهو: أنه اعترف بالذنب وأنه هو الفاعل له ، وتاب إلي الله جل وعلا منه . فمن أخذ سبيله فتاب من الذنب واعترف ورجع إلي الله تعالي ، فهو آدمي وأما من اتخذ السبيل الآخر فعاتب القدر ونسب الفعل إليه ، فهذا إبليسي المنهج عياذا بالله .

"وإن لم تغفر لنا ": المغفرة : أي الستر علي الذنب والمجاوزة عنه.

"وترحمنا" : والرحمة من الله : بأن يغفر لهم وأن لا يعاقبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة .

" لنكونن من الخاسرين" وهذا يؤصل لنا مبدأ المكسب والخسارة أن الخاسر : هو من لم يُغفر له ويرحم ، وهو من أصرّ علي المعاصي والذنوب –والعياذ بالله– فهذا خاسر وأما من تاب إلي الله –جل وعلا– وغفر له فهذا هو الفائز .

– ولذلك ... ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

خسران واضح بيّن، وأما الفوز المبين العظيم : فهو بالمغفرة ودخول الجنة.

(قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤))

" اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ": أي اهبطو من الجنه وسيكون بعضكم لبعض عدو.

" ولكم في الارض مستقر" : أي مكان استقرار.

"ومتاع إلي حين ": أي تمتعون بما فيها إلي وقت معلوم وأجل محدود .

(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥))

انظر إلي هذه الآية ...ثلاث جمل هي قصة حياة الإنسان من أوله إلي آخره "قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ" فتحيون فيها إلي ماقدره الله من آجالكم . "وفيها تموتون" يكون الموت فيها والدفن. " وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ" أي: من قبوركم إلي البعث والحشر والنشور، ثلاث جمل تحكي لك قصة هذا الإنسان حياته، وموته، وبعثه .

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ(٢٦))

يقول الله –جل وعلا– مخاطباً آدم وحواء وذريتهما في هذه الأرض: تحيون مدة ماقدر الله لكم ، وكذلك أيضاً في هذه المدة تمتعكم باللباس والرياش.

أما اللباس: هو ماجعل ضرورة في ستر العورات * وأما الرياش: فهو الملبس الكمالي تتجملون به في الناس.

إذاً: فقد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم هذا اللباس الضروري لستر العورات.

وريشاً: أي اللبس الذي تتجملون به، وقيل: إن الرياش في كلام العرب بمعني :الأساس أي: ظاهر الثياب وقيل كما في قول ابن عباس، المال أي : ننزل لكم ماتلبسون وما تنفقون منه.

" وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ": أي إنكم إذا فعلتم ما وجب عليكم و تركتم ماحرم عليكم كان هذا أفضل ملبس تلبسونه.

– وقيل ولباس التقوي ذلك خير معناه : مايلبسه المتقون يوم القيامة ، أي : خير مما أعطاكم الله في الدنيا من هذه الملابس ، فأعطاكم ملابس أفضل منها وهي ما يلبسه المتقون في الاخرة .

وقيل لباس التقوي: أي السمت الحسن والتواضع والخشيه الي غير ذلك المهم أن لباس التقوي يجمع كل ذلك

" ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون": أي لعلهم يتذكرون نعمه الله جل وعلا عليهم فيشكرونها فإن الذي أنزل هذه الملابس وستر هذه العورات هو الله جل وعلا ولذلك يشرع للمؤمن أنه إذا لبس ملبسه أن يحمد الله جل وعلا عليه فيقول " الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه بغير حول مني ولا قوة "، وأن يدعو له أخاه بالبركه إلي غير ذلك كل هذا لتذكر نعم الله علينا للملبس، فذكر الله –جل وعلا– اللباس الحسي واللباس المعنوي، وقال أن المعنوي خير من الحسي والأول أيضا من الخير، حتي لايظن ظان كما ظن بعض الصوفية، فقد ذكر الشعراني في (طبقات الأولياء) أتي علي رجل اسمه إبراهيم العريان وقال :" وكان من كرامته ﷺ أنه كان يخطب عرياناً فلما قيل له تخطب عريانا؟ قال :"ولباس التقوي ذلك خير " أين التقوي..؟! أنت لم تفعل ما أمرك الله به ونهاك عنه ، بل سار مسلك الشيطان عياذاً بالله لـ "يبدي لهما ماووري عنهما من سوآتهما" انظر إلي استدلال الشيطان، أمر عجيب !! ولذلك لاتغتر أبداً أن يأتوا ببعض الآيات فيشبّهون بها علي الناس ويسوغون مذاهب باطلة بالقرآن –عياذاً بالله جل وعلا–

(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧))

يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ:أى لايغرنكم الشيطان بتزيين المعصية بترك اللباس الحسي فيستر العورة أو ترك لباس التقوي فقد خدع آدم أبيكم بتزيين الأكل من الشجرة حتي كان مآل ما زيّنه لهما أن أخرجهما من الجنة.

"كما أخرج أبويكم من الجنة"

كيف أخرجهم ؟...بالطريقين : أقسم لهما ، وزيّن لهما فلنحذر...أن التزيين مصيبة كبيرة ، فلو أخذنا حذرنا من هذا الباب لاتقينا أشياء كثيرة.

" يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ "

أي: أن الشيطان يراكم هو وقبيله وذريته من حيث لاترونهم ، أي : يرونكم ويشاهدونكم وأنتم لاترونهم ، وهذا هو مكمن الخطر ، أن الشيطان يراك ويعرف أفعالك ويشمّك فيعرف من أين يدخل لك ، فاحذر المداخل.... ولذلك مداخلك لا بد أن تضع عليها حراسة، حراسة الثغور، العين ،والأنف ،والفم ،والأذن، والفرج ، كلها مداخل فلا بد أن تحتاط ، وأن تغلق هذه المداخل للشيطان الذي يراك فإن رأي ثغره دخل منها –نعوذ بالله من هذا–

وفي هذه الآيه دليل علي أن الجن لايُري في صورته الجنيّة

" من حيث لاترونهم " لا تروهم...فلا يُري الجني علي صورته الجنية ..لأن كثيراً من الناس يقول رأيت جنياً، صفه؟ يقول عينه مشخوطة وفيه كذا وكل هذا إيهام، إنما الجن لايري علي صورته الحقيقية.

" إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ": إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون بالله، وأما المؤمنون بالله فليس للشيطان ولا لذريته ولاية ولا سطوة ولا سلطان عليهم.

إذاً: "إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون" ... لماذا صاروا أولياء للشيطان ؟ لأنهم لم يؤمنوا، بل لما دعاهم إبليس وأغواهم إلي الشرك، أطاعوه كما قال تعالى " أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يٰبَنِيۤ ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ٱلشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا "

والجِبِلّ بمعني : الخلق ، أي : خلقاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون؟!.. فإنه خدع الكثيرين عياذاً بالله– جل وعلا– بسبب أنهم أطاعوه في الشرك –عياذاً بالله–

(وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٢٨))

"وإذا فعلوا فاحشة":أي وإذا ارتكب المشركون الفاحشة.

والفاحشة: كل مايفحش فيصير عظيماً وتستنكره النفوس .

" قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا": علل المشركون فعل الفاحشة بعلتين :

الأولي : أنهم وجدوا آباءهم كذلك.

الثانية: أن الله أمرهم بها عياذاً بالله –جل وعلا–

فقال الله جل وعلا لنبيه، رُدّ عليهم وقل : " إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" ....

وهذا هو أظلم الظلم– كما سيأتي معنا – بل هو أشد ظلماً من الشرك، أن الإنسان يفتري علي الله الكذب ويقول الكلام الباطل

" قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ" لا يأمر بالفحشاء أي أمراً شرعياً.

" أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ " ؟!!

– إذاً هم قالوا شيئين : وجدنا آباءنا والله أمرنا .... فرد الثانية "أن الله لايأمر بالفحشاء"، وترك الأولي ، فدل ذلك علي أن الذي سوّل لهم هذا هو التقليد لآباءهم وهذا الصنف من الناس يسميه ابن القيم ب "جهال الكفار" أنهم جهلة مقلدة لآباءهم في الكفر عياذاً بالله –جل وعلا– وهم ليسوا معذورون بهذا التقليد.

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

" قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ": والقسط بمعني: العدل، ومن أعدل العدل التوحيد، ثم ما يكون فيه عدلاً مما شرعه الله جل وعلا، وطالما أنه أمر بالقسط، فإنه ينهي عن ضده، إذاً فقد أمر بالقسط ونهي عن ضده من الفواحش والمنكر .

" أقيموا وجووهكم ": أى أخلصوا العبادة لله جل وعلا.

"عند كل مسجد ": المسجد يطلق أيضاً علي أمرين:

١ـ الأمر الأول: وهو المكان والبيت الذي وضع للعبادة.

٢ـ ويطلق علي الآلة التي يُسجد بها، وهي المفاصل وغير ذلك فهذه تسمي مساجد لأنها مواضع للسجود أيضاً

" وَادعوهُ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ ": "الدين" بمعني : العبادة والطاعة

"وادعوه" بمعني: اعبدوه

*فكلمة الدعاء تأتي في القرآن علي معنيين :

١- تأتي بمعني العبادة .

كما في قوله تعالى " وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا " فدل علي أن الدعاء عبادة ، فالذي يصلي هو داعٍ، والمزكي داع ، والصائم داع؛ لأنه إنما يقصد بذلك أن يثيبه الله جل وعلا ، فحتي لو لم يطلب الثواب فهو حاله حال الداعي.

٢- والدعاء أيضاً يأتي بمعني دعاء المسألة والطلب: أنك تطلب من الله شيئاً فهذا أيضاً دعاء كما قال تعالى.

– فعلي كل ينبغي الإخلاص لله جل وعلا والتوجه إليه وحده بالعبادة .

" كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ": علي أحد تفسيرين :

١- أما الأول : كما بدأكم تعودون أى: كما بدأ خلقكم يعيدكم بعد ذلك.

٢- وعلي التأويل الثاني: كما بدأكم تعودون فريقاً هدي وفريقاً حق عليهم الضلاله.

أي : أن الله ابتدأكم وهو يعلم الكافر والمسلم وستعودون أيضاً في نهاية الأمر إلي ذلك .

– ولذلك يقولون أن الخواتيم مواريث السوابق

فإن الإنسان كتب له وهو في بطن أمه شقي أم سعيد، وهو يعمل الأعمال ويصل بها في الآخر إلي هذه النتيجة .. شقي أم سعيد . ولذلك يقولون: السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه، ويقولون : الخواتيم مواريث السوابق .

(فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٠))

" فَرِيقًا هَدَى ": أي: فريق منكم هداه الله جل وعلا، أو هم هداة، ويسّر لهم أسباب الهداية وصرف عنهم موانعها.

" وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ": أي : وجبت عليهم الضلالة ، لماذا حقت ووجبت؟..

"إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دون الله "

أي: صيّروا الشياطين لهم أولياء، فأحبوهم من دون الله ونصروهم واتخذوهم أخلاء وأصحاب فانقادوا لهم جهلا وهم يظنون أنهم مهتدون إلي الصراط المستقيم، " ويحسبون أنهم مهتدون " .

إذاً ففريقاً هدي وفريقا حق عليهم الضلاله.... إذا سألت لماذا حق عليهم الضلالة..؟

لأنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، هذا فعلهم وما ربك بظلام للعبيد ؛ لأن بعض الناس يستشكل عليه قول الله تعالى : " يهدي من يشاء ويضل من يشاء " ويقول هذا الضلال الكوني فالله هو الذي أضلّه فكيف يحاسبه ؟

نقول : لأنه هو الذي اتخذ سبل الضلالة فلم يكن محلاً لهداية الله، فلم يوفقه الله جل وعلا، إلي أسبابها، ولم يزل عنه مانعها فضلّ، ولذلك كل الآيات بهذه الطريقه "وفريقاً حق عليهم الضلاله إنهم اتخذوا الشياطين" "بل طبع الله عليها بكفرهم " "فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" إلي غير ذلك من الآيات التي توضح أن الله ليس بظلام للعبيد.

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١))

ينادي الله –جل وعلا– علي بني آدم ويأمرهم بأخذ الزينة.

" خذوا زينتكم عند كل مسجد" المقصود بالزينة هنا: ما يستر العورة بالإجماع، نقل الإجماع الرازي عليه رحمة الله أن الزينة هنا ما يستر العورة.

وكلوا واشربوا ولاتسرفوا : أي: وكلوا واشربوا مما شئتم من الطيبات التي أحلها الله جل وعلا، ولاتتجاوزوا حد الإعتدال إلي حد الإسراف ولاتتجاوزوا الحلال إلي الحرام، لماذا؟ لأن الله لايحب المتجاوز عن حد الإعتدال وهو المسرف

وهنا يأتي سؤال قال الله تعالى هنا : "خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلو واشربوا " فلماذا جمع بين أخذ الزينة والأكل والشرب فى آية واحدة ؟

– نقول : لأن هذه الآيه نزلت على سبب، وهو أن المشركين كانوا إذا طافوا بالبيت، طافوا عراة فإذا وجدوا ملابس جديدة لبسوها، وإن لم يجدوا خلعوا ملابسهم وطافوا بالبيت عراة، رجالا ونساء، وكانت المرأه تخلع ملابسها إلا موضع نَسْعة و هى خيط تغطى به فرجها ويطوفون بالليل عرايا... لماذا كل هذا...؟

– يقولون : لا نطوف بملابس عصينا الله فيها فكيف لنا أن نطيعه بملابس قد عصيناه فيها....!! انظر ماذا يفعل الشيطان بالناس يعطيهم تبريراً ومسوغاً ولكنه مسوّغ إبليسى !.

– حتى تعلموا لماذا أتت هذه الآية أيضاً بعد ذكر قصة آدم و ظهور العورة بفعل الشيطان له لكى تعلم أن الشيطان لم يترك المسألة إلي الآن، لأن بعض الناس قد يقول هو فعل ذلك بآدم ونحن سنأخذ حذرنا وكيف لعاقل أن ينصاع له فيكشف عورته ، نقول: لا ! إنه لبّس عليهم أنهم يطيعون الله بذلك ، فجعلها عبادة وكانوا أيضاً في

الحج والطواف يحرمون على أنفسهم أشياء منها أكل السمن والدسم ويقولون نمتنع من أكلها فلا نأكل لحماً ولا كذا ؛ تعظيماً للحج، فقال المسلمون إذا كنتم تفعلون ذلك تعظيماً فنحن أولى بالتعظيم منكم، فنهوا أنفسهم عن أكل هذه الطيبات؛ فنزلت هذه الآية :

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢))

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ: من حرم عليكم لبس هذا الملبس؟ من الذي قال لكم اخلعوه وتعرّوا... ؟

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ: من الذي حرم عليكم هذه المأكولات والمشروبات التي رزقكم الله بها .

قل هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا: أي : يتمتعون بها ويستعملونها في طاعة الله في ستر العورة.

– وعندنا مثلاً هذه الآية : دليل علي أن ستر العورة شرط من شروط الصلاة وشرط من شروط الطواف فإذا طاف بالبيت أو صلي ستر عورته، فأنت تستر عورتك تعبداً فبذلك أنت استخدمت هذه النعمة وهي الملبس في شئ أمره الله –عزوجل– وشرعه ؛ لتؤجر عليه وهو ستر العورة .

" قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ "

– وهذا أيضاً لأن الله ماخلق هذه الأشياء إلا لكي نعبده بها نأكل لنعبد نلبس لنعبد أما من أخذها وهو ليس عابدا فهي ليست له ولذلك يعاقب عليها في الآخره عياذا بالله –جل وعلا–

"قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا" وماذا عن الآخرة...؟ " خالصه يوم القيامة" فهذا الملبس والمأكل من الطيبات في يوم القيامة لايأكله ولايلبسه إلا من؟ أهل الايمان، أما الكفار ليس لهم في ذلك، هم يشركون المؤمنين فيها في الدنيا، أما في الآخرة فللمؤمنين خالصة.

" كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ " أي نبينها لقوم يعلمون.

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٣))

قل : أي يا أيها الرسول.

الفواحش: أي قبائح الذنوب الظاهرة والباطنة.

"وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ" : البغي معناه: الإعتداء ظلما علي الناس في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم.

السلطان: بمعني الحجة فليس لهم حجة في ذلك.

" وأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ": أي، وأن تقولوا علي الله بغير علم فتحل الأمور أوتحرمها افتراءً علي الله جل وعلا، ولذلك فإن القول علي الله بغير علم كما قلت افظع جرما عند الله من الشرك، لأن هذه الذنوب كما قال (ابن القيم) مرتبة، بدأ بالفواحش ثم ثنّي بأشدها جرما ثم التي أشد منها ثم الأعلي جرماً وهي القول علي الله بغير علم.

فإذاً القول علي الله بغير علم من أكبر الكبائر والجرائم وكما قلت هي أشد من الشرك، ولذلك قال تعالي : " وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لايُفلِحون"

– لذلك تجنب أن تقول حلال وحرام أو هذا الأمر حلال وهذا الأمر حرام، فلان شهيد، وفلان غير شهيد، فلان مسلم وفلان كافر، كلها أحكام، وكله إذا لم يكن صواباً فهو إفتآت علي الله.

– وقد كان الأئمة –رحمهم الله– يقولون يعجبني كذا والأقرب كذا والأظهر كذا والظاهر من الآية كذا، ولا يقول أحدهم أن الصواب كذا والحلال كذا والحرام كذا، إذا لم يكن معه دليل حل أو دليل حرمة ظاهر، فنتجنب هذه الأمور حتي لا نقول علي الله بغير علم، وأنتم تذكرون قصه الأخوين اللذين عبدا الله جل وعلا، وكان أحدهما عابداً والآخر يسرف علي نفسه في الذنوب وكان كلما مر العابد علي أخيه ذكره بالله حتي أتي يوم فقال له: تب وارجع ، قال أبعثك الله علي رقيبا؟! أم جعلك علي حسيبا؟! دعني وشأني ، فقال:إذاً لا يغفر الله لك..!! ،...كلمة... مع أنه كان عابدا ويقول لأخيه دائما افعل وافعل، ولكنه أتي هذا اليوم يقول: لايغفر الله لك، فأمر الله بقبض أرواحهما ثم أحياهما، فقال للذي قال لايغفر الله لك : أكنت علي ما في يدي قادراً أم كنت بي عالماً ؟ ثم قال للآخر غفرت لك فأدخلوه الجنه ثم أمر بهذا فسحب إلي النار، يقول أبو هريرة راوي الحديث–ﷺ– : "لقد قال كلمةً أوبقت دنياه وآخرته".

أوبقت : أي: أهلكت ...كلمة واحدة...قال..لايغفر الله لك.. ونحن نسمع اليوم كثيراً أحدهم يقول: "فلان في النار حدف " وفلان هذا في الجنة، من الذي أخبرك بهذا...؟! أم تقولون علي الله مالا تعلمون هذا من أفظع الأمور–عياذاً بالله– أو أن يحُرم، فمثلاً تجد بعض الناس في مجالسهم يُذكر شئ فيقول :هذا حرام بل هو أصل الحرام ليس حرام فقط ..من الذي أخبرك أنه حرام؟؟ وإن كان شئ علي هواه يقول هذا حلال..!! فمن الذي أحله؟ فالحلال والحرام أحكام شرعيه ولذلك فإن من يقول حلال وحرام، كأنه يقول: الله يقول حلال والله يقول حرام ، مُوقعٌ عن رب العالمين، فلنأخذ حذرنا ولننتبه.. وعندما نقول أن فلان مات علي الكفر، هذا مقطوع له بالنار فمن مات علي الكفر فهو في النار، هذا علي العموم، ولكن لو قلنا مثلاً..شنودة..في الجنة أم في النار؟؟ فالصحيح أن نقول : تبيّن لنا أنه من أصحاب النار...لماذا ؟

نقول وقوفاً مع الدليل ؛ لأن إبراهيم –عليه السلام– لما وعد أباه بالإستغفار، قال تعالي "فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ " ف ...تبين لنا... لأن أحكام الدنيا علي الظاهر، فمثلاً إنسان مات أمامك وهو كان مسلماً في الدنيا، هل

نقول أنه في الجنة ؟؟ نقول: تبيّن لنا أنه في الجنة ؛ لأنه مات علي الإسلام إما حالاً وإما مآلاً، علي إعتقاد أهل السنة والجماعة فنحن إذاً لانجزم لأحد بجنة أو نار، إلا ماجزم الوحي له.

وهناك مسألة واحدة فقط خلافية وهي : من شهد له العدول أو شهد له المسلمون جميعاً بأنه كان صالحاً، فمذهب ابن تيمية –رحمه الله– أنه يقول في الجنة، ويستدل علي ذلك بأحاديث منها: " أنتم شهداء الله في أرضه" فإذا شهد الناس بذلك، فهو في الجنة. فمثلاً الشافعي رحمه الله، أطبق العالم علي تعديله فهو في الجنة هذا مذهب ابن تيمية.

ولكن مذهب الجمهور : أننا لا نقول في الجنة ولا في النار، إلا ما ثبت في الشرع .

فمثلاً أبو لهب أين؟ في النار؛ لأن الآية موجودة " تبّت يدا أبي لهب وتب " وأبو جهل أيضاً في النار.

وأبو بكر الصديق أين هو؟ في الجنة، وعمر، وعثمان، وعلي، جميعهم في الجنة.

فمن نقطع له بالجنة والنار ، هو من قطع له الشرع بذلك.

أما المعين هل نحكم له بنار ؟

نقول حتي لو كان كافراً في الدنيا نقول تبيّن لنا أنه من أهل النار، والله تعالى أعلم.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٣٤))

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ: الأمّة هي الجماعة من الناس، وقيل لكل جيل وقرن مدة وميقات محدد لآجالهم فإذا جاء ميقاتهم المقدر لايتأخرون عنه زمناً وإن قل ولا يتقدمون عليه.

"لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً": الساعة المقصود بها : الزمن المقدر وليست الساعة التي هي ستون دقيقة، إنما ساعة بمعني الزمن المقدر .

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥))

إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ: أي من جنسكم ومن أقوامكم.

يقصون عليكم: يقصون بمعني يتلون وهو من القصص أو القص بمعني الإخبار، وليس من القصص التي مفردها قصة إنما يقصون بمعني: يخبرون أو يتلون عليكم آياتي.

فَمَنِ اتَّقَى: فمن أطاعهم واتقي واتخذ وقاية من عذاب الله –جل وعلا– وسخطه ومن ناره.

وَأَصْلَحَ: فأصلح عمله وقوله واعتقاده

فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ: لا خوف عليهم فيما هم يقدمون عليه، ولا يحزنون علي ما فاتهم من حظوظ الدنيا.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦))

فأما الكفار الذين كذبوا بالآيات.

وكذبوا بالآيات: بمعني جحدوها وأنكروها ولم يؤمنوا بها.

وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا: أي ترفعوا وتكبروا عنها.

– أنا أريدكم أن تلاحظوا أيضا صفات إبليس المنتقلة عبر الأجيال، أنت رأيت هذه الأفعال التي فعلوها في أول هذا الربع من السورة، كذلك أيضاً بعض الصفات، صفة الكبر، هل كانت في إبليس فقط؟ .لا

بل قال تعالى: " من تبعه منهم لأملأن جهنم منكم"، سيصيرون مثله في الصفة فهم لديهم صفة الكبر؛ ولذلك قال تعالى: " وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا ".

نفس مدرسة إبليس، نفس المقررات، فالفصل الأول: الكبر، والفصل الثاني: الإباء، فهو عندهم نفس المنهج " وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا " إباءً ورداً وعدم انقياد لها وعدم العمل بها، كل هذا من الإستكبار.

" أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " خالدون يعني ماكثون فيها أبدا .

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ (٣٧))

فَمَنْ أَظْلَمُ: ليس من قبيل السؤال، إنما معناه لا أحد، أي : لا أحد أظلم ممن افتري علي الله الكذب –والعياذ بالله– أو كذّب بآياته –عياذاً بالله – أنت تري "من أظلم" كثيراً في القرآن، كل هذا ليس معناه أن أحدها أعلى من الآخر وإنما معناها أن كل هؤلاء في الظلم سواء ، ولكن تنوعت مشاربهم ومناهجهم، ولكنهم كلهم سواء في هذه المظلمية، وليس معناها أن أحدهم فاق الآخر أو أن ظلماً من نوع يفوق ظلماً من نوع آخر، لا بل أن جميعهم في هذه الأنواع بلغوا الغاية والمنتهي – عياذاً بالله .

"نصيبهم": أي حظهم.

"من الكتاب " أي: مما كتب لهم في اللوح المحفوظ.

" حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ " ورسلنا أي : رسل الله جل وعلا وهم ملائكته

والملائكة : مأخذوة أصلاً من الألوكة، والألوكة: تعني الرسالة، أي أنهم أيضاً يرسلون كما في أول فاطر "الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً "، فالملائكة أيضاً رسل لأنهم يحملون أوامر الله جل وعلا إلي خلقه وكذلك أيضاً يحملون أوامر الله القدرية لتنفيذها.

قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ: سألوهم عن آلهتهم وعن شركائهم أين هي؟ لماذا لم يأتوا لإنقاذكم في هذه اللحظة الحاسمة ؟!!

"قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا": ضلوا عنا بمعني: غابوا فالضلال يأتي بمعني الغيبة، غابوا عنا ذهبوا، وهذا يفسر لنا قول الله جل وعلا في صورة السجدة: "أإذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد "

ضللنا في الأرض: يعني غبنا وصرنا عظاماً بالية لا نُري .

"وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ": أي : أقروا علي أنفسهم أنهم كانوا كافرين، لكن هذا الإقرار لاينفعهم ...لماذا؟؟

– لأن التوبة لا تقبل في ثلاثة مواطن، هذه أحدها "حال الغرغرة" إذا وصلت الروح الحلقوم وغرغر الإنسان يغلق باب التوبة، والثاني إذا طلعت الشمس من مغربها، والثالث عند نزول العذاب ورؤيته.

(قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ (٣٨))

" ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ قَبْلِكُم": أي تقول لهم الملائكة: ادخلوا في أمم، أي : في جملة أمم

قَدْ خَلَتْ: مضت من قبلكم.

" مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ ": قيل أنهم ماتوا أيضاً كما مات هؤلاء علي الضلالة والكفر.

ولذلك نقول أن طريق الهداية له رجاله، وقافلة طويلة من آدم –عليه السلام– إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقوافل الشرك أو القوافل الإبليسية موجودة من أول إبليس عليه لعنة الله وإلي أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذاً فواجبنا نحن أن نحذر أن نكون مع هؤلاء –عياذاً بالله– بل نكون مع المؤمنين الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، أهل التقوي والإصلاح .

"كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ": لعنت أختها التي سبقتها في النار تلعنها.

اللعن بمعني: إما الدعاء بالطرد من الرحمة أو بالعذاب الشديد، فكلمة لعن قد تأتي بمعني العذاب الشديد.

ادَّارَكُواْ: أي تلاحقوا فيها واجتمعوا كلهم لأن أهل النار –عياذاً بالله– يدخلونها دفعاً، ويتساقطون فيها .

– كما يتبين لك أن أول المشهد يساقون والنار أبوابها مغلقة

"حتي إذا جاءوها فتحت أبوابها": تخيل المنظر هم واقفون أمام الباب يتزاحمون والملائكة تدفعهم وتؤزهم فإذا فتحت الابواب ورأوا النار دفعتهم الملائكة، كما قال تعالي "يوم يدعّون إلي نار جهنم دعّا "، دعّاً: يعني الدفع بشدة، ولذلك في سورة الماعون "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ " ف (يدع): يعني يدفع .

"قَالَتْ أُخْرَاهُمْ" دخولاً "لأُولاهُمْ" دخولاً

أخراهم وهم السفله والأتباع ، يقولون لمن ؟ للمتقدمين، من هم؟ الكبراء والرؤساء.

يقولون "رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ"

يقولون : هؤلاء الكبراء أضلونا طريق الهداية، يعني ما أرشدونا إليه بل أغوونا حتي تركنا طريق الهداية

– وهذا يدلنا أن كلمة الضلال تأتي بمعني :

١ـ ضد الرَّشد والهداية ٢ـ والضلال يأتي بمعني الكفر

٣ـ والضلال يأتي بمعني : عدم العلم بالتفاصيل، كما في قوله تعالى "ووجدك ضالاً فهدي" ماكنت تعرف تفاصيل الكتاب " ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " فهداك لمعرفتها، وليس والعياذ بالله الضلال الذي هو هنا الذي هو ضد الرشد والخير .

"قالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ"

أي عاقبهم عقاباً مضاعفاً، لماذا؟ لأنهم زيّنوا لنا الضلال .

"قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ": أي: كل واحد منكم سيكون عليه العذاب مضاعف ولكنكم تجهلون ذلك ولا تدركونه .

(وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩))

" قالَتْ أُولاهُمْ " وهم الساده والكبراء "لأُخْرَاهُمْ " وهم السفلة والأتباع.

" فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ": يعني ما الذي تتفضلون به علينا حتي لا يضاعف لكم العذاب؟ فالعبرة بما كسبتم من الأعمال ولا عذر لكم في اتباع الباطل .

" فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ": فذوقوا أيها الأتباع العذاب مثلما ذقناه بسبب ما كنتم تكسبونه من الكفر والمعاصي–عياذاً بالله–

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠))

"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا " الآيات الواضحة

" وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا " أي: أبوا وترفعوا عن قبولها والعمل بها.

" لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء ": هذه أول عقوبة، وذلك أنه إذا أخرجت الرسل أرواحهم وكما تعلمون في الحديث "في أنتن ريح من ريح الدنيا وضعوها في كفن أيضاً منتن ثم صعدوا به إلي السماء لا تفتح له الأبواب –وذلك من نتنها– ثم تطرح هذه الأبواب في وجه صاحبها مرة أخري عياذاً بالله جل وعلا، وهذا فيه دليل : أن أهل الإيمان الذين اتقوا وأصلحوا تفتح لهم أبواب السماء كما في الحديث "تفتح لها ثم تسأل كل أهل سماء لمن هذه الروح الطيبة "

" وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ": هذا النفي للدخول نفيٌ أبدي، فإن الكافر الذي مات علي كفره لا يدخل الجنة أبداً لا ابتداءً ولا آخراً، إذاً " وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ " أيّ دخول؛ لأن هناك قاعدة عند الأصوليين تقول : أن الفعل المضارع يفيد العموم لأن فيه نكرة مستكنّة، فالفعل يتكون من مصدر وزمن فالحدث هو الزمن والمصدر هذا نكرة، أي لا يدخلون الجنة أيّ دخول، فأي نوع من أنواع الدخول هو محرم عليهم.

" حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ": سم الخياط أي : ثقب الإبرة، يقول: لو دخل الجمل في سم الخياط في ثقب الإبرة سيدخلون الجنة وهذا مثل يضرب لإستحالة أن يحدث ذلك فالمُعلق عليه وهو دخولهم الجنة مستحيل، وكذلك أيضاً الذي عُلق عليه الدخول مستحيل أيضاً.

وهناك قراءة شاذة لابن محيصن يقول "حَتَّى يَلِجَ الْجُمَّلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ "، والجُمّل هو: قلس السفينة، وهو الحبل الثخين الذي في السفينة فهو قد يدخل، ولكن الأبلغ في الشرط هو الجمل لاستحالة دخوله.

" وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ": فمن كذب بالآيات واستكبر عنها هذا وصفه أنه مجرم؛ لأن كلمة أجرم بمعنى: اكتسب جرحاً، فاكتسب اثماً فيسمي مجرماً وهذا الإجرام الأكبر، لأنه يوجد إجرام أصغر ولكن هذا الإجرام الأكبر.

ـ فإذاً المجرم هو من كذب بالآيات الواضحات وتكبر عن الانقياد لها.

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١))

" لَهُم مِّن جَهَنَّمَ " أي لهؤلاء المكذبين المتكبرين.

"مِهَادٌ ": المهاد بمعني: الفُرُش التي يفترشونها، ففراشه يكون ناراً عياذاً بالله.

" وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ": الغواش بمعني: الأغطية، إذاً فالفراش من تحته نار ومن فوقه نار، كما قال تعالي "لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنْ النَّار وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ "، من فوقهم ومن تحتهم كلها نار في نار –عياذاً بالله– ومثل هذا الجزاء.

"وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ " المتجاوزين لحدود الله في كفرهم وتكذيبهم واستكبارهم، عياذا بالله.

جهنم: قيل سميت بهذا الإسم ؛ لأنها تدل علي البعد، قعرها بعيد .

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

– لما ذكر مآل المكذبين ذكر مآل الصالحين ولذلك القرآن مثاني لأنه إذا ذكر مآل هؤلاء ذكر مآل هؤلاء، لأنه – كما قلت في بداية التفسير– : أن القرآن كله حديث عن التوحيد فيذكر لك مآل المكذبين بالأمر والنهي الرافضين المستكبرين عن التوحيد ومآل أيضاً غيرهم من المؤمنين.

" لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ": أي لا يكلفك الله فوق ما تستطيعه.

و السؤال:"لا يكلف الله نفساً إلا وسعها " هل هذا تيسير أم تشديد...؟

الجواب : هي تشديد وتيسير في نفس الوقت تشديد من وجه وتشديد من وجه آخر،

أما التيسير: فهو في الجزء الذي لا تستطيعه فإذا عجزت فيه يسر عليك.

أما التشديد : في أنه يلزمك أن تفعل ما في استطاعتك لا تترك شيئاً مما تستطيعه.

ولذلك قال " أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " أي، ماكثين فيها أبداً.

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ: أي من تمام نعيم أهل الجنة أن الله–جل وعلا– نزع مافي صدورهم وقلوبهم من بغضاء وحقد.

وهنا قد يسأل سائل : أمن أهل الجنة وفي قلوبهم بغضاء وحقد ؟! نقول صحيح يدخل الجنة البعض وفي قلوبهم بغضاء وحقد علي البعض اللآخر، فماذا يفعل بهذه البغضاء؟ تُنزع، ولذلك عندما تتأمل كلمة نزعنا، تجد فيها صعوبة.

فأزل هذه الأشياء من الآن، و لا تجعل الشيطان يبذر البذرة ويلقي النار وأنت تنفخ فيها، فقد يأتيك ويقول لك إخوتك أو أصدقائك لا يهتمون لك أو أنك لا قيمة لك،و هم يلتفتون لأنفسهم وهم كذا ...، وأنت تصدقه إلي أن يكبر الأمر في صدرك، و في الحقيقة أنت تعمل الصالحات وهم يعملون الصالحات، وتدخلون الجنة في النهاية.

"ونزعنا ما في صدورهم من غل " فإياك أن تترك للغل موضعاً حتي لا يُنزع منك فتخيل إن هذا القلب السليم ابتداءً هو أولي القلوب –نسأل الله أن يسلم قلوبنا وأن لا يجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا–

" تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ ": أي من تحت أشجار الجنة تجري هذه الأنهار العظيمة.

" وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ": يعترفون بنعمة الله –جل وعلا– أن الله هو الذي وفقهم وهداهم لهذا الأمر، هداهم أولاً في الدنيا: إلي العلم النافع والعمل الصالح، وهداهم في الآخرة: إلي منازلهم في الجنات، فالواحد من أهل الجنة يعرف منزله في الجنة أكثر من معرفته بمنزله الذي كان في الدنيا، وهذا نوع هداية ، أسأل الله أن نكون من أهلها

الحمد: الثناء علي الله –جل وعلا– علي صفاته اللازمة والمتعدية والتي منها أنه أدخلنا الجنة وغفر لنا ورحمنا

" وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا "

ولذلك كان النبي (صلي الله عليه وسلم) يرتجز مع الصحابة –ﷺ– وهم يرتجزون في حفر الخندق ، ويقول :

والله لولا الله ما اهتدينا :: ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا :: وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألي قد بغو علينا :: وإن أرادوا بنا فتنة أبينا

ويرفع صوته –صلي الله عليه وسلم– في "أبينا" ويقولها ويكررها – ﷺ، فإذاً الهداية والتوفيق من الله –جل وعلا– ، وهذه الهداية لعصابة الحق ولخاصة الناس، هذه الهداية تشمل المؤمنين، وهداية أخص منها وهي للرسل والأنبياء، أما الهداية العامة بمعني إبانة الطريق وإيضاح الحجة فهذه هداية للجميع، كما في قوله تعالي " وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى "، هديناهم بمعني : دللناهم وأبنا لهم الطريق.

" لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ": أي الذي لا مرية فيه والصدق في الوعد والوعيد.

" وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا": أي أورثكم الله إياها.

"بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ": ضع علي الباء علامة واكتب عندها باب السببية أي: بسبب ما كنتم تعملون.

هل دخول الجنة برحمة الله أم بالأعمال ؟

الآية هنا تقول "تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون " وفي الحديث " لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله ورحمته " إذاً فالدخول بالفضل والرحمة أم بالعمل؟

الجواب: الباء في الآية : للسبب.

أي: بسبب الأعمال يدخل الإنسان بعد رحمة الله له ومغفرته له الجنة ، فكأن المغفرة عبارة عن مفتاح وأسنان المفتاح هي الأعمال فلا بد من الإثنين، والباء المنفية في الحديث "لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " تسمي باء المقابلة أي في مقابلة العمل يدخل الجنة، لا فالجنة ليست مقابلة للعمل، كأن تقول اشتريت هذه بهذه، هذه في مقابل تلك؟ لا وإنما العمل سبب لدخول الجنة، وأيضاً لن تدخل الجنة إلا برحمة الله حتي و إن أتيت بهذا السبب علي جهة المقابلة، فباء المقابلة هي المنفية في الحديث، والله تعالي أعلم.

فليست الجنة تباع وتشترى ، وليس لها مقابل، إنما العمل كما قلت يشبه المفتاح الذي لابد له من أسنان .. إنما فضل الله ورحمته هي من تدخل العبد الجنة .

ثم تنتقل الآيات لتطلعنا على ذلك المشهد وهو تلك المحاورة التي تقع بين أهل الجنة وأهل النار ومعهم أهل الأعراف.

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤))

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ: أي على سبيل التحقير والتوبيخ، يوبخونهم .

أَصْحَابَ النَّارِ: بعدما دخل كل واحد منهم إلى منزله، فقال أصحاب الجنة:

أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا: إنا وجدنا ما وعدنا الله به من الخير.

حَقًّا: أي تحقق لنا ذلك، فقد دخلوا الجنة ورأوا النعيم الذي وعدهم الله جل وعلا به.

فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا: وعد هنا بمعنى أوعد، أي ما توعدكم به من العذاب إذا رددتم أمر الرسل حقا.

قَالُواْ نَعَمْ: ونعم هنا في الجواب هي تكرير للسؤال، يعني نعم تكون تكريرا للسؤال، السؤال: هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قالوا نعم، يعني نعم قد وجدنا ما أوعدنا به ربنا حقا.

- ولذلك يقولون أن نعم تكرير للسؤال، فلو أن رجلا قال للآخر هل طلقت امرأتك؟ فقال: نعم، تطلق المرأة، لأن في قوله نعم تكرير لما أتى في السؤال (نعم طلقتها).

فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ: أذّن بمعنى أعلم ونادى.

مؤذن: أي معلم بينهم.

أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ: أي أن هذا المنادي أو الذي يدعو يقول: أن الظالمين الذين أعرضوا عن شرع الله جل وعلا، وتركوا ما جاءت به الرسول، هؤلاء استحقوا اللعنة من الله واللعن بمعنى الطرد من رحمة الله جل وعلا، فهم كانوا يرفضونها في الدنيا بإعراضهم وإنكارهم لدعوة الرسل، وكذلك أيضا جزاؤهم من جنس عملهم، فيطردون من رحمة الله – عياذا بالله – في الآخرة، ومرّت معنا الآيات قبل ذلك أن هؤلاء :" لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ "

فهؤلاء مبعدون تماما من كل خير قد يجده أهل الإيمان في الآخرة .. مَن هؤلاء الظلمة ؟

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥))

" الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" هذا أول وصف لهم.

يصدون: يعني يمنعون، يمنعون أنفسهم ويمنعون غيرهم، ولذلك قال، يصدون، فالصد هنا للنفس وللغير أيضا.

" وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ": يبغون ماذا؟ يبغون السبيل، سبيل الله جل وعلا، يبغونها عوجا يعني زيغا وميلا وانحرافا، يريدون لطريق الله جل وعلا أن يكون منحرفا زائغا و هو صراط مستقيم وهو دين القيّمة، دين الاستقامة، فهم يريدون ذلك عياذا بالله جل وعلا.

" وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ": أي جاحدون ومكذبون ومنكرون، ومن كانت هذه صفته أنه جاحد بالآخرة جاحد بالبعث منكر له مكذب، فإنه يكفر ويصد عن سبيل الله ويكذب الآيات ويريد العوج والميل والزيغ لطريق الله جل وعلا، ولذلك تأتي هذه الثلاثة متلازمة،كما في سورة الأنعام، أن الله جل وعلا، قال لنبيه: " وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ " هذه الثلاثة تأتي متلازمة فمن كذّب بالآخرة، عدل بربه وكذلك كذب بالآيات، ومن كذّب بالآيات كفر بالآخرة وعدل بربه، و من كفر بالله جل وعلا، كذب بالآيات وأنكر الآخرة، الثلاثة تأتي مترابطة ومتلازمة.

وفي هذه الآية وحّد السبيل، قال: " يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ " فسبيل الله واحد، و أما الأهواء فهي سُبُل.

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦))

الحجاب: بمعنى الحاجز والسور والستر، أي بين أهل الجنة وأهل النار حجاب، و هذا هو المذكور في سورة الحديد " فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ "، هذا هو السور و هو الحجاب الذي يُضرب بين أهل الجنة وأهل النار، باطنه فيه الرحمة ،أي من قِبل أهل الجنة،

و ظاهره، أي من قِبل الكفار والمنافقين، العذاب، ولذلك ينادونهم ألم نكن معكم؟ إلى آخر الآيات ..

الأعراف: هي أعراف السور: أي شُرُفاته المرتفعة، و كل شيء عالٍ يسمى عرفا، ولذلك يسمون عرف الديك بهذا الإسم، يسموه عرف؛ لأنه مرتفع مُشرف، فسموه عرفا، فلو تخيلنا السور المضروب، هذا السور له باب دخل منه المؤمنون فأغلق، فكان من دون المؤمنين الجنة ومن ظاهره النار والعذاب.

وعلى الأعراف رجال: أي على هذا السور، على شرفاته المرتفعة، على أعاليه يوجد رجال، ذكرهم الله بهذه الآية.

رجال: هو جمع مبهم، لا نعرف من هم الرجال، مبهمون، و لذلك اختلف أهل التفسير فيهم:

١- الجمهور على أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم .

وهذا أمر عجيب!، أمر عجيب جدا !، تخيل واحد تساوت حسناته تماما مع سيئاته كم كان يحتاج ؟؟ حسنة ! هذه الحسنة قد تكون تسبيحة، قد تكون ركعة قد تكون صدقة ولو بشق تمرة، قد تكون ولو أن يلق أخاه بوجه طلق لأنه من المعروف، فالإنسان لا يحقر من المعروف شيئا و يظل طوال عمره يبحث عن هذه الحسنة، يقول: لعل هذه الحسنة هي التي ترجح، أنا لم أحصل الحسنة التي ترجح إلى الآن، فيظل دائمًا يبحث عن هذه الحسنة، فلا يزهد في الخير.

٢- والقول الثاني: أنهم أفاضل مؤمنين.

والعجيب، لماذا لم يدخلوا الجنة حتى الآن وهم أفاضل الناس؟ **يقول أهل العلم: ولِمَ تأخر دخولهم ؟؟ الجواب:** لأنهم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعداء، وهذه أحد أنواع اللذة يوم القيامة، أن الإنسان يرى عدوه فيُشفى صدره، ويستلذّ بذلك، فهذا كما قلت من شفاء الصدور أن يروا ذلك، كما في قوله تعالى: " فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ "

فلذلك قال أهل العلم أن أهل الجنة بينهم – حتى وهم في غرفاتهم – وبين أهل النار طاقة (فتحة) ينظرون إليهم لتشفى صدورهم ويتمتعون بذلك، ولذلك في سورة المطففين قال: (عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ) " وأطلق النظر .. يعني ينظرون إلى ماذا؟ ينظرون إلى نعيمهم في الجنة ينظرون إلى وجه الله جل وعلا، كذلك ينظرون إلى أعدائهم الذين كانوا من المجرمين يضحكون عليهم ويتغامزون بهم؛ لأن هذا نوع من أنواع الفرح بإهلاك هؤلاء ؛ لأن المؤمن يفرح بهلاك أمثال هؤلاء الذين حق عليهم القول فلا يخاف أحدهم عقابا ولا يرجوا ثوابا، فالإنسان يفرح بهلاكهم، كما في الحديث " وأما الفاجر " أي : إذا مات " استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب " كلٌ يفرح بموته " فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ "، فنسأل الله أن يشفي صدورنا من قومٍ مجرمين ظالمين.

يعرفون كلًا: يعني يعرفون كلا، أي من أهل النار وأهل الجنة.

بسيماهم: أي بعلاماتهم المميزة، هم يعرفون الجميع بالعلامات، فعلامات أهل الجنة معلومة، كانت في الدنيا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، في الدنيا سيماهم في وجوههم أي السمت الحسن، والخشوع الذي يظهر على الوجوه، و ليست ما يسموها بعلامة الصلاة.

هذا في الدنيا، وماذا في الآخرة؟؟ تبيض الوجوه، كما قال تعالى : " يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ " تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، فهنا تظهر هذه العلامة، بياض، نورٌ في الوجه، ونورهم أيضا معهم يسعى بين أيديهم، فيرون ذلك، لهم نور فيعرفون أهل الإيمان بذلك.

كذلك أيضا وجوه أهل الإيمان وأهل الخير مُسفرة أي مُشرقة، فيها ضوء وفرح، كما قال تعالى: " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ " وأما الوجوه الأخرى عياذا بالله، وجوهٌ سوداء " وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ " قترة وتراب، والعياذ بالله، غبار سواد، كما قال تعالى: " كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا "، فانظر إلى الفجر ونوره يُقطّع ظلام الليل، انظر إلى القطع السوداء، وإذا كنت ممن لم تصب عينك بالغشاوة وأنفك بالزكام من المعاصي، فسترى هذه الصور الشائهة الآن في وجوه الكفار، المتفحص في وجههم يرى هذا السواد، من أين أتى ؟؟ من سواد القلب بالكفر عياذا بالله .. لأنهم غطّوا الإيمان وأنواره فحجبوه فاسودت القلوب والوجوه عياذا بالله جل وعلا، كذلك من سيمات أهل الظلم يوم القيامة، أن عيونهم زرقاء، كما قال تعالى " وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا " زرقا يعني زرق العيون، فتخيل هذا المنظر، واحد وجهه أسود شديد السواد وعينه زرقاء، ألوان عجيبة، نسأل الله العافية.

تريد أن تعرفهم في الدنيا ؟؟

فانظر إلى قول الله " وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ " كذلك قال تعالى " تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ "، ترى وجوههم منكرة، اشمئزاز من الحق الذي يذكر عليهم، ولذلك هذه الصفات لابد من دراستها جيدا حتى تعلم سيما كِلا الفريقين.

وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ: أي هم يعرفون أصحاب الجنة وينادون عليهم.

أن سلامٌ عليكم: إما سلامٌ عليكم، يحيونهم وكلمة سلام فيها تحية ودعاء، حينما تقول السلام عليك، أنت تسلم عليه وتدعو له، أي سلمك الله من كل آفةٍ وعيب، انظر إلى جمال تحيتنا، أنك تسلم وتدعو، النبي ﷺ يقول " أفشوا السلام تسلموا " أي تسلموا من أدواء الحقد والغل إلى غير ذلك.

سلامٌ عليكم: ١- يحيونهم.

٢- أو سلامٌ عليكم، يخبرون أن حالهم سالم، وأنهم قد نجوا من النار عياذا بالله جل وعلا.

والظاهر الأول .. أنهم يسلمون عليهم كما أن الملائكة تسلم أيضا عليهم.

والله أيضًا يسلّم عليهم " سلامٌ قولًا من ربٍ رحيم "، سبحانه وتعالى، أسأل الله أن يرزقنا ذلك.

والملائكة " الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ "

فكل هذه المعاني داخلة في قولهم سلامٌ عليكم.

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ: أي لم يدخل هؤلاء الجنة بعد، وهم يأملون أن يدخلوها برحمة الله جل وعلا، وهذا أقرب للتفسير بأن أصحاب الأعراف هم من تساوت حسناتهم وسيئاتهم.

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧))

صُرفت: يعني حُوّلت، وهذا الفعل فيه جهد، ليس نظرت، بل صُرفت، كأن المنظر شائه، ولكن تُصرف لرؤية هذه الوجوه البشعة حتى يعلوا رجاؤها عند الله جل وعلا، وإذا حُولت أبصار هؤلاء تجاه أصحاب النار وشاهدوا ما هم فيه دعوا الله جل وعلا،

رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ: هم لم يقولوا ربنا لا تعذبنا عذابهم، إنما دعوا بعدم المصاحبة، لا تجعلنا مع القوم الظالمين، فكأن المحظور عندهم ليس هو العذاب فقط، بل ما يوجبه ويؤدي إليه، وفيه إرشاد إلى تجنب كل ما يجعل الإنسان محشورا أو مرتبطا أو متواجدا مع القوم الظالمين، الإنسان يبتعد عن هذه الأمور، ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ(٤٨))

رجالا: أي من أهل النار يعرفونهم بعلاماتهم، كسواد الوجوه وزرقة العيون.

قائلين لهم : " ما أغنى عنكم جمعكم " : وما هنا :

١- إما أنها استفهامية: فهم يستفهمون من باب الإنكار والتوبيخ، يقولون هل أغنى عنكم جمعكم ؟

- وأغنى بمعنى نفع، والغنى يأتي بمعنى النفع كما في قوله تعالى " مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ " أي لم ينفعه، فيقولون، أنه هل نفعكم جمعكم للأموال والجنود والعتاد والعدد فيما كنتم تجمعون له من الكيد لأهل الإيمان في الدنيا للصد عن سبيل الله، هل أغنى عنكم ما كنتم تجمعون؟

٢- أو ما تأتي نافية من باب التقرير ، أي: ما حدث ذلك، ولذلك هم يجمعون الأموال؛ للصد، قال تعالى " فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ "

وما كنتم تستكبرون: والاستكبار هو عن الحق وعلى الخلق، فترفعوا عن الحق فلم يقبلوه ولم ينقادوا له، وترفعوا عن الخلق بأن اعتقدوا أنهم أفضل وأحسن وادّعوا لنفسهم كمالات وجحدوا فضل الآخرين،

ولذلك أوضح النبي ﷺ الكبر بقوله " هو بطر الحق وغمط الناس ".

- بطر الحق، أن الإنسان يرد هذا الحق ولا ينقاد له يبقى متكبر . وغمط الناس القدح في الناس بما لا يُقدح فيهم من أجله ويعلو ويرتفع.

(أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩))

" أهؤلاء ": كأنهم يشيرون إلى أهل الجنة.

" الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ": يعني أنهم أقسموا أن هؤلاء لن يُرحموا ولن يدخلوا الجنة لماذا كانوا يفعلون ذلك ؟ لأن اعتقاد أهل الظلم والكفر أن المعاملة في الآخرة، هي بنفس الطريقة في الدنيا، ولذلك كان الواحد منهم عنده أموال وأولاد وصحة فإذا دُعي إلى الآخرة رفض، قال لعلي إذا كنت في الآخرة وكان ما تقولون، يكون لي مثل ذلك،و"قَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا " أي في الآخرة،" أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ".

– فهم يظنون أن الدنيا لما أعطوها كان لهم مثل ذلك في الآخرة ،كما في صاحب الجنتين قال " قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا "، فهو يظن أيضا أن المنقلب سيكون أفضل طالما أنه كان في الدنيا أفضل فيظن أن الحساب واحد، ولكن الحقيقة أن الحساب في الآخرة بـ " إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ".

ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون: لا خوف عليكم في القادم ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم من حظوظ الدنيا، والمؤمن لا يحزن لأنه كما في الحديث " يؤتى بأبئس أهل الأرض " أي من المؤمنين " فيغمس في الجنة غمسة فيقال له هل رأيت بؤسا قط ؟؟ قال ما رأيت بؤسا قط ".

وهنا سؤال: من الذي قال لهم " ادخلوا الجنة "؟؟

١– ظاهر السياق أن أهل الأعراف قالوا ذلك لأهل الجنة، ادخلوا الجنة، أي دخلتموها وتنعمتم بها طبتم.

٢– وقيل أن الله جل وعلا يقول لأهل الأعراف ذلك.

٣– أو أن الملائكة تقول لهم ذلك.

– المهم أنهم يدخلون الجنة أيضا، مآل أهل الأعراف إلى الجنة.

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠))

ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة: يعني ينادونهم ملتمسين منهم.

" أفيضوا ": الإفاضة هي النزول بكثرة وتكون من أعلى إلى أسفل، ولذلك قال تعالى " فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ "، فتخيل المنظر، هم أهل الكبر، ومع ذلك في الآخرة، هم في أسفل سافلين وأهل الجنة في عليين.

أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله: أي من الطعام، ولذلك كان ابن عمر يدعو كثيرا بعدم الحرمان من الماء، كذلك ثبت عن النبي ﷺ " واجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد "، لأن الماء البارد نحتاجه دنيا وآخرة، وهذا دليل على أن أهل النار يعطشون ويجوعون، وإلا لماذا طلبوا الماء وطلبوا الطعام ؟؟ وطعامهم سيأتي في سورة الصافات إن شاء الله.

– فقال أصحاب الجنة " إن الله حرمهما على الكافرين "

" حرّمهما ": منعهما

• وهذا التحريم كوني لأنه لا تكليف في الآخرة، يعني حرمهما كونا، منعهما كونا وهذا من التحريم الكوني، كما في قوله تعالى: " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ " هذا تحريم كوني أم شرعي ؟

ج : كوني وليس شرعي.

أما التحريم الشرعي فمثاله:" حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ " هذا تحريم شرعي، يعني شرع لكم هذا المنع من أكل هذه الأمور واستعمالها.

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١))

" اللهو": كل ما صد عن الحق. " اللعب ": كل أمر باطل.

معناها أنهم صيّروا دينهم لهو ولعب، يعني : صار اللهو واللعب هو الدين، ولذلك سيأتي معنا أنهم في عبادتهم مكاء وتصدية، تصفيق وتصفير إلى غير ذلك، يسمونه ذكرا، لعب والعياذ بالله، ولذلك أول من اتخذ هذه المسائل مسألة الخبط بالأيدي، والرقص في التعبد هم بني إسرائيل حينما عبدوا العجل فلما خرج منه الصوت (الخوار) قاموا يضربون الأرض بأرجلهم ويصفقون بأيديهم، فكل شئ له أصل ؛ فمثلا " وما كنتم تستكبرون " فمن هو كبير وأصل المستكبرين ؟ إبليس – عليه لعنة الله – فهو منهج متواصل ، المقررات تدرس في مدرسته ليل نهار.

وغرتهم الحياة الدنيا: أي خدعتهم بزينتها وزخرفها.

فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا: بمعنى نتركهم أو بمعنى نعاملهم معاملة الناسي لهم وكلا المعنيين صحيح، وذلك كما في قوله " نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ "،

نسوا الله: أي تركوا شرعه ودينه فتركهم الله جل وعلا أيضا في العذاب، الجزاء من جنس العمل، وهذا بعكس النسيان المنفي في كتاب الله في قوله تعالى :" وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا " وقوله " لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى "، فهذا النسيان المنفي: هو الذهول عن العلم بعد معرفته ، وهذا منفي عن الله جل وعلا .فعلم الله كامل لا يسبق بجهل ولا يتبعه نسيان، أما " نسوا الله فنسيهم " " فاليوم ننساهم " بمعنى نتركهم، أو نعاملهم معاملة الناسي لهم.

" كما نسوا لقاء يومهم هذا ": نسوا بمعنى تركوا الإيمان به والعمل بمقتضاه.

" وما كانوا بآياتنا يجحدون ": بحججنا وبراهيننا كانوا ينكرون ولا يصدقون عياذا بالله.

• من فوائد هذه الآيات:

ـ عدم الإيمان بالبعث سبب مباشر للإقبال على الشهوات، كما في قوله تعالى " وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ "، وفي قوله " الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا "، " فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا "، فالسبب في أنهم أقبلوا على الشهوات، نسيان يومهم، ولذلك علاج الشهوات، أحد روافده العظيمة،

التذكير بالآخرة، فإلهاب سوط الظهر بالآخرة يجعلك تنتظم في السلوك، ولذلك الإيمان باليوم الآخر قطب الرحى في تكوين الشخصية المسلمة، لو أن الإنسان فقد هذا المعنى فقد كل شيء.

و ابحث في المنتكسين – نسأل الله العافية ، وأسأل الله لي ولكم وللمسلمين الثبات – ..

ما السبب الرئيسي في انتكاسهم ؟ عدم التذكير بهذه المسألة، مسألة اليوم الآخر.

ـ كذلك أيضا الناس ينقسمون في الآخرة إلى ثلاث فرق:

ـ أهل النار وأهل الجنة وأهل الأعراف فهم ثلاثة يؤولون إلى اثنين.

ـ كذلك الذين يملكون المال والجاه وكثرة الأتباع فليعلموا أن هذا كله لن يغني عنهم من الله شيئا، ولن ينجيهم من عذاب الله إن خالفوا أمره.

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢))

" بكتاب ": أي بهذا الكتاب وهو القرآن الذي أنزل على مُحَمَّد ﷺ.

" فصلناه ": بمعنى بيناه.

" على علمٍ ": أي على علم منا بتفصيله وما يصلحهم فيه، سواء كان من أحكام، حلال وحرام، من قصص، من مواعظ، بهذه الأمور كلها.

" هدى ورحمة لقوم يؤمنون ": فهذا الكتاب المفصل فيه الهداية، أي بيان طريق الحق وإيضاح المحجة لمن أراد، وفيه رحمة ؛ لأنك إذا ما التزمت بالمحجة وسارت معها، رُحمت في الدنيا والآخرة أيضا.

" لقومٍ يؤمنون " : فهل هذا الكتاب هداية لقوم يؤمنون فقط ؟

• الجواب: إذا قلنا أن الهداية هي هداية التوفيق والقبول فهي لأهل الإيمان فقط، وذكروا هنا ؛ لأنهم هم المنتفعون به، وإذا قلنا بأنه هداية بيان ودلال وإيضاح المحجة عموما، فهي هداية عامة ،كما في قوله " وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ " أي أبنّا لهم الطريق، فيكون هذا الكتاب، وذكر لقوم يؤمنون لأنهم أهل الانتفاع كما في قوله " ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ "، فهو كتاب هداية للجميع، ولكن ذكر المتقين ؛ لأنهم من ينتفعون به.

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٥٣))

" هل ينظرون إلا تأويله ": يعني هل ينتظر الكفار إلا تأويله.

والتأويل أصله: عاقبة الشيء وما يؤول إليه، أى ما ينتظر الكفار إلا وقوع ما أخبرهم القرآن بوقوعه من العذاب الأليم، الذي يؤول إليه أمرهم في الآخرة.

• س : ولكن هل الكفار ينتظرون ما يؤول إليه الأمر وهو – كما ذكرنا – ما أخبرهم بوقوعه القرآن من العذاب الأليم مع أنهم كانوا يجحدونه في الدنيا؟؟

((وهذا سؤال قد جاء في الامتحان السنة الماضية بنفس النص))

الجواب: المؤمن ينتظر تأويله لأنه مؤمن مصدق، والكافر وإن جحد هذا التأويل إلا أنه بمنزلة المنتظر وفي حكمه من حيث أن هذه الأحوال تأتيهم لا محالة، إذًا هو في حكم ومنزلة المنتظر وإن كان هو يجحد هذا الأمر، يذهب إليه رغما عن أنفه.

" يوم يأتي تأويله ": أي ما أُخبروا به من هذه العاقبة.

" يقول الذين نسوه من قبل ": نسوه هنا بمعنى تركوه، تركوا الاهتداء به.

" قد جاءت رسل ربنا بالحق ": فهل ينفع الإيمان هنا؟؟ لا ينفعهم !

" فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ": أي فيشفعون لنا عند الله عز وجل ليعفينا من العذاب.

" أو نُرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ": ماذا كانوا يعملون ؟

يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون، اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، جحدوا بالآيات، كفروا بالآخرة، و يريدون الرجعة لكي يعملوا غير الذي كانوا يعملون، كما في قوله " وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ " وهذا الإيمان – كما قلت – عند معاينة العذاب لا ينفعهم.

" قد خسروا أنفسهم ": لم يصبهم نفع بها بل أنفسهم في العذاب.

" وضل عنهم ": ضل بمعنى : غاب عنهم.

" ما كانوا يفترون ": أي من أصنامهم الذين اتخذوها آلهة، أين هم ؟؟ ما عاد أحد معهم.

١– فكلمة الضلال تأتي بمعنى الغيبوبة والذهاب، كما في قوله تعالى في السجدة :" وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ " يعني غبنا أي: فنوا.

٢– والضلال أيضا يأتي بمعنى عدم المعرفة بتفاصيل الشريعة كما في قوله تعالى : " وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ " يعني لم تكن عالما بتفاصيل الشرع فأعلمناك بها ودللناك عليها.

٣– ويأتي الضلال بمعنى الكفر. ٤– ويأتي بمعنى البعد عن العقل.

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤))

" إن ربكم ": ربكم بمعنى السيد المالك الآمر الذي له الملك، الخالق، الرازق، إلى غير ذلك من معاني الربوبية

" الله ": بمعنى المألوه الذي يستحق العبادة، وكلمة رب تأتي بمعنى الإله أيضا،كما في قوله " أأربابٌ متفرقون خير " وفي قوله " اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا " بمعنى آلهة، فكلمة الرب تأتي بمعنى الإله، ولذلك توحيد الربوبية

والألوهية هل ينفصلان ؟؟ ليس هناك فصل، فصل نظري فقط، إنما توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، يعني أحدهما مستلزم والآخر متضمن لا ينفكان.

" الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ": أي على غير مثالٍ سابق، وفي ستة أيام، فيها دليل على التأني، ولو أن الله أراد أن يخلقها بكن لكانت، ولكنه يعلمنا التأني والإتقان.

ولكن، ما حجم هذه الأيام؟ هل هي كأيامنا؟ أم أن اليوم كألف سنة مما تعدون؟؟

الله أعلم، ذهب بعض أهل العلم أن كلمة أيام بمعنى أوقات غير مقدرة.

– ابتدأ الخلق في الأحد وانتهى الجمعة، والسبت لم يكن فيه خلق، ولذلك سمي السبت لماذا ؟ لأن كلمة سبت بمعنى القطع.

" ثم استوى على العرش ": قلنا الاستواء على العرش بمعنى علا وارتفع، استواءًا يليق بجلاله، ولا ندرك له كيفية.

• و الإستواء يأتي في القرآن على ثلاث معاني :

استوى إلى، واستوى على، واستوى فقط.

١– " فاستوى إلى " في البقرة، بمعنى: قصد، " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ".

٢– " واستوى على " بمعنى: علا وارتفع، كما في قوله: " فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ " كمل وجودكم وعلوتم وارتفعتم عليها.

٣– " واستوى " فقط، بمعنى: كَمُلَ ونَضُجَ، كما في قوله " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ".

" يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ": أي يذهب ظلام الليل بضياء النهار وضياء النهار بظلام الليل وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا أي سريعا، فلا يتأخر عنه فإذا ذهب هذا دخل هذا، وهذا من عجيب خلق الله جل وعلا، " لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ "

" والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ": مسخرات، أي مذللات مهيئات.

" بأمره ": أي بأمر الله جلا وعلا، وهذه من آياته سبحانه وتعالى.

" ألا له الخلق والأمر ": كلمة له الخلق، الجار والمجرور قُدّم، وهذا عند علماء البلاغة يسمى بالتخصيص والقصر، يعني الخلق له وحده والأمر له وحده، فكما أن الخلق له وحده فكذلك الأمر له وحده، فالذي خلق وحده يأمر وحده.

• وهذه الآية استدل بها الإمام أحمد على أن كلام الله غير مخلوق، لأنه قال الخلق والأمر، فالعطف للتغاير، فالخلق غير الأمر فدل على أن الكلام غير مخلوق.

" تبارك الله رب العالمين ": تبارك الله بمعنى تعاظم سبحانه وتعالى.

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥))

– بدأت هذه الآيات في ذكر آداب الدعاء، كيف ندعوا الله جل وعلا الرب الملك؟

فلماذا ذُكرت هذه الآيات بعد هذه الآيات السابقة ؟؟

لأن إجابة الدعاء مرتبطة ارتباطا شديدا بالربوبية، " إن ربكم الله "، " ادعوا ربكم "، ولذلك في الحديث أنه يقول: " يارب يارب ومطعمه حرام " تكرار كلمة يارب، لماذا الرب بالذات؟ لأنها أخص في إجابة الدعاء.

" تضرعا ": أي بتذلل تام وتواضع. " وخفية ": أي سرا.

" إنه لا يحب المعتدين ": أي في الدعاء.

كيف يحدث الاعتداء ؟؟ أو ما هي صور الإعتداء في الدعاء ؟؟

يحدث الاعتداء :

١– بأن يُرائي الإنسان بدعائه.

٢– كذلك أيضا من صور الاعتداء في الدعاء، الدعاء بأشياء لا تكون كمن يدعو ربه أن يكون ملكا من الملائكة، هذا اعتداء.

٣– من الاعتداء أيضا ما ذكر عند الترمذي وأبي داوود وغيرهم من حديث ابن سعد بن أبي وقاص " أنه سمعه سعد وهو يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها فقال: يا بني اسأل الله الجنة واستعذ من النار فإني سمعت النبي – ﷺ يقول : إن من أمتي قومٌ يعتدون في الطهور والدعاء "، والرواية الأخرى أنه قال له " فاسأل الله الجنة فإنك إن دخلتها أخذتها وما فيها ".

والزيادة في الطهور المقصودة في الحديث، هي: التكلف فيه، " والنبي ﷺ كان يتوضأ بالمُد ويغتسل بالصاع ".

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ(٥٦))

الإفساد، أي بارتكاب الكفر والمعاصي، والإعمار: بالطاعة ومتابعة الرسل.

" وادعوه خوفًا وطمعًا ": أي ادعوه خوفًا من عذابه وطمعًا في ثوابه.

لماذا ؟ قال تعالى : " إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين ".

فمن كان محسنا في دعائه فإن رحمة الله قريبٌ منه، ومن كان مُحسنا في أفعاله مع الناس فإن رحمة الله تكون قريبة منه كذلك، هي دعوة بأن نكون من المحسنين.

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧))

" بشرًا ": أي مبشراتٍ.

" بين يدي رحمته ": الرحمة هنا بمعنى المطر، وكذلك الرحمة تأتي أيضا بمعنى الجنة" فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ " يعني في جنته، كما في الحديث " أنتِ رحمتي – الجنة – أرحم بكِ من أشاء "

" حتى إذا أقلّت ": أي حملت هذه الرياح المبشرات.

" سحابا ثقالا ": أي مثقل محمل بالماء.

" سقناه لبلد ميت ": ميت بمعنى مجدب. فأنزلنا به الماء: أي بهذا البلد.

" فأخرجنا به ": أي بالماء ..

من كل الثمرات: أي من جميع أنواع الثمار.

" كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ": أي تتذكرون قدرة الله وبديع صنعه وأنه قادر على إحياء الموتى.

وهذه الصورة أيضا هي صورة إخراج الناس يوم القيامة من قبورهم أن الله يرسل سحابة فتنزل مطرا على عجز الإنسان الذي هو عجب الذنب، فينبتون منه ويخرجون كما كانوا، وهذه الآية فيها دلالة على أحد الدلالات الخمسة في القرآن على أن الله يحيي الموتى، بمسألة إخراج النبات مرة أخرى.

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ((٥٨)

" الطيب ": بمعنى الأرض الطيبة.

" يخرج نباته بإذن ربه ": أي يخرج خروجا حسنا تاما.

" والذي خبث ": خبث بمعنى أنه غير طيب، أرض سبخة مالحة لا تخرج نباتا.

" لا يخرج إلا نكدا ": النكد بمعنى العسر الردئ الذي لا خير فيه.

فهذا المثل للأرض الطيبة والأرض الخبيثة وهي تماما كمثل المؤمن والكافر، فالمؤمن إذا نزل عليه الوحي خرج عمله صالحا، والكافر إذا نزل عليه الوحي لم يزدد إلا نفورا وبعدا " زَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ "

" كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ": أي يشكرون نعم الله فلا يكفرون ويطيعون ربهم.

والقرآن: هو جملة واحدة إنما يتحدث عن توحيد الله جل وعلا ، فيبين ما هو التوحيد ويذكر ما يناقضه ويذكر لوازم التوحيد من الأمر والنهي، ويذكر عاقبة من امتثل توحيد الله جل وعلا، واتبع أمره وانتهى عن نهيه، ويذكر أيضًا عاقبة من خالف الأمر والنهي وأعرض عن التوحيد، ويذكر أمثلة بشرية لكلا الفريقين، فيذكر المحقين من أهل الحق وكيف أنهم في الدنيا سعدوا ونجوا وكيف هو حالهم في الآخرة بفضل الله جل وعلا، ويذكر عاقبة المبطلين الذين هم أهل الباطل، وعاقبتهم من الخسار والنكال والدمار في الدنيا، وكيف يكون حالهم عياذا بالله جل وعلا في جهنم، فالقرآن كله يدور حول هذا المعنى ؛ ولذلك تبدأ معنا السورة في هذا الموطن بذكر تلك النماذج البشرية

• هذه النماذج لماذا تُذكر؟

قال الله جل وعلا في آية فذة في كتابه موضحا العلة قال تعالى : "وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ"

فأول شيء هو تثبيت فؤاد النبي ﷺ، وتبعًا له أيضا تثبيت فؤاد المؤمنين من أهل الحق فهو يسليه ويقول له إنك لست وحدك فليس قومك هم من كذّبوا وحدهم، ولكنك قد سُبقت برسل كُذبوا في أقوامهم فهي تسلية له وتصبير وتثبيت لقلبه ﷺ ،كذلك كما هو ثبات له، هو ثبات لأمته .. لماذا؟

لأن أهل الحق مهما لقوا يعلمون أن العاقبة للتقوى، ويعلمون أن الباطل مهما انتفش وكبر فإنه إلى زوال "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء": ولذلك قال تعالى "وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ" ثم أيضا يتبين لنا من خلال هذا القصص سنة الله جل وعلا فيمن مضى من الأمم وهي سنة لا تتبدل ولا تتغير فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ولذلك قال تعالى "وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ"

– كذلك فيها أيضا الدلالة على نبوة النبي ﷺ إذ هو لم يكن قارئا ولم يكن قد تتلمذ على يد أحد، ولكنه الآن يأتي بأخبار صادقة،

من أين أتى بهذا طالما أنه لم يطالع كتابا ولا تلمَذ أستاذا؟

لاشك إنه من الوحي فهذا أيضا دلالة على نبوته ﷺ، وتبدأ هذه القصص بنوح عليه السلام.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩))

لَقَدْ أَرْسَلْنَا: أي: لقد بعثنا وهذا هو الإرسال الشرعي، أي بعثنا نوحا عليه السلام إلى قومه، ونوح عليه السلام هو أول رسول كما في الحديث الصحيح " أن الناس يذهبون له في الموقف فيقولون يا نوح أنت أول رسول أرسلك الله إلى أهل الأرض .. إلخ الحديث "

إِلَى قَوْمِهِ: لماذا أرسل إلى قومه؟ نقول إن الرسول إنما يرسل إلى قومه إذا كانوا معاندين قد خالفوا توحيد الله جل وعلا، فهنا يُرسل الرسول إلى قومه، وهذا من أجود ما يُفرَّق به بين الرسول والنبي

* أن الرسول : أُرسل إلى قوم معاندين. * وأن النبي : أرسل أيضا لكن إلى قوم موافقين.

فأرسله الله جل وعلا إلى قومه وقوم الرجل: هو من كان نسبه فيهم، فإذا أنت كنت نسيبا في جماعة قلت يا قوم، وكذلك أيضا القوم يطلق على الصاحب فهو صاحبهم وعاش معهم يعرفون مدخله ومخرجه يعرفون صفاته، فإذن هم أجدر الناس بقبول دعوته أليس كذلك؟ بلى، هم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم – ولكن هل كانوا مُعاندين ؟ نعم.

لأنه كما في حديث ابن عباس " أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون على الفطرة على الإسلام ثم إنه لما مات فيهم بعض الصالحين وهم من ذكرهم الله جل وعلا في سورة نوح وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا، قالوا: لو نصبنا في أماكنهم أنصابا حتى نتذكر ما كانوا عليه من العبادة، فاتخذوا أجسادا أي أصناما في أماكنهم وسموها بأسماء هؤلاء الصالحين، قال ابن عباس فلما طال الزمان وقل العلم وفشى الجهل عُبدت من دون الله "

– فكان هذا أول شرك على الأرض للغلو في الصالحين.

فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ: وهذه الدعوة هي دعوةٌ، أجمع المرسلون عليها كما في قوله تعالى "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ " أي يقولوا لهم اعبدوا الله.

مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ: وهذه الكلمة هي كلمة التوحيد، لا إله إلا الله التي هي الإيمان بالله جل وعلا وإثبات العبادة له وحده ونفيها عن كل من سواه ؛ ولذلك لا إله إلا الله يعني لا يُعبد بحق، ولا تُصرف له العبادة إلا الله فتنفى عما سوى الله جل وعلا وتُثبت له وحده ؛ ولذلك يقولون أن كلمة التوحيد :

نفي وإثبات، فتُثبت العبادة لله، وتنفيها عما دون الله جل وعلا، كما قال تعالى "فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ" فلابد من الأمرين، لابد من الإيمان بالله سبحانه ولابد من الكفر بالطاغوت.

– فإن الإثبات المحض أن تثبت العبادة لله محضا كأن يقول القائل: " الله إله " هذه لا تدخله لماذا؟ لأنه أثبت فقط والإثبات المحض لا ينفي الشركة، إذا قال الله إله ولم ينفِ العبادة عما سواه فهو لم يفعل شيئا ؛ لأنه قد يجوز أن يكون هناك من يُعبد مع الله عياذا بالله.

– والنفي المحض هذا لا يقول به عاقل إلا بعض المجانين من بني آدم لأنه تعطيل إذن لابد من الإثبات والنفي معًا ؛ ولذلك قال نوح عليه السلام:

اعْبُدُوا اللَّهَ :هذا أمر بالعبادة، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ : هذا نفيها عن كل من سواه.

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ: فنوح عليه السلام إنما أتاهم بالتوحيد وهو يخاف عليهم، وهذا من شفقة هؤلاء الرسل على أقوامهم مع عنادهم وكفرهم واستكبارهم وإعراضهم إلا أنهم يخافون عليهم ، وهكذا كل صادق في دعوته فهو يخاف على الناس ويتمنى أن ينجوا من عذاب الله ويتمنى أن لو آمنوا فدخلوا جنة الله جل وعلا ولذلك، يقول: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ : أي أحذّركم عقابه في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنكم لو استمريتم على ذلك فإن العقاب يقع بكم، كما هي سنة الله جل وعلا ولو أنكم ظللتم على ذلك حتى مُتُّم لكان العذاب الأليم الموجع في الآخرة.

(قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠))

قَالَ الْمَلَأُ: والملأ هم سادة القوم وكبراؤهم وإن جاز لنا أن نسميهم بالمصطلح المعاصر " النُّخْبَة " ولذلك بعض أهل التفسير يقولون هم من يُشار إليهم فيملأون العين في الدنيا، ولكن المقياس عند الله جل وعلا "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ".

مِن قَوْمِهِ: هذه الكلمة تُؤكّد ما ذكرناه وهو أنهم يعرفونه ويعرفون عقله ويعرفون سيرته ويعرفون صدقه، يعرفونه تماما كما يعرفون أنفسهم.

إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ: يقولون نحن نرى أنك في ذَهاب عن طريق الحق والصواب، وأنت في طريق الباطل عياذا

بالله جل وعلا، وهذا الكلام الذي ذكروه كأنه يقين عندهم، فانظر يتهمون رسولهم الذي عاش فيهم عمرا طويلا بهذا ! ولذلك أنت لا يضرك ولا تحزن أن نُتهم اليوم باتهامات نحن بعيدون عنها ؛ لأنك تتعامل مع الله جل وعلا، فهذا طريق معلوم: أن من سلك طريق الله جل وعلا وجاء بما جاء به النبي ﷺ فإنه يُعادَى، ومن ضمن أنواع المعاداة أنه يُسبّ ويُشتم ولذلك مالك رحمه الله قال: " من لم يصبه في هذا الأمر بلاء فليتهم نفسه "كيف لا يُبتلى ؟!! – أنت أتيت بما يخالف أحيانا الفطر والعادات، ويخالف اعتقادات القوم، فكيف لا يجابهونك ويطعنون فيك ؟!! وهذه أيضا تدلنا على مسلك أولئك،

فهؤلاء يسيرون في ثلاث طرق:

أما الأول فهو الطعن في الداعية وصاحب المنهج ؛ ولذلك اتهموا نوح عليه السلام بالضلال المبين، وسيأتي معنا اتهام هود بالسفاهة وغيره، واتهموا مُحَمَّد ﷺ بأنه شاعر وكاهن وساحر، فإذا لم تُجدي تلك الحيلة،

قالوا إنك ما أتيت إلا بأساطير الأولين " وقالوا أساطير الأولين اكتتبها "، قالوا هذا شعر قالوا هذا سحر قالوا أشياء كثيرة جدا ، فيتهمون منهجه، فإذا لم تجدي أيضا هذه الحيلة،

اتهموه في أتباعه " قالوا مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ " فيريدون تعويق الدعوة والطعن فيها بالأتباع ولذلك هنا قالوا "قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ".

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦١))

ما أروع هذا الأدب وما أحسنه وما أروعه من خلق لو تخلّق به الدعاةَ اليوم، هؤلاء هو يعلم أنهم من أضل الناس ومن أسفه الناس وهم أكذب الناس في قولهم، ومع ذلك لم يرد الإساءة بالإساءة؛ ولذلك يقال أن هذا من كمال النصح والشفقة وهضم النفس وحسن المجادلة، فمع علمه بأن خصومه أضل الناس وأسفههم، ترك المقابلة بما قالوا له وفيه تعليم لنا كيف نرد على السفهاء، تخيل بأن رجل سفه فسفهت معه، أنت أنزلت من نفسك ولذلك الرد على السفهاء يكون بمثل هذا، ولم نخسر شيئا بالعكس !

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ انظر !! قال: يَا قَوْمِ فنسبهم إلى نفسه، هذا من مقامات الإحسان، كما فعل النبي ﷺ مع من شجَّ رأسه وكَسر رباعيته في أُحد وقال وهو يقيل الدم عن وجهه (يرفع الدم) اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "يقول ابن القيم" فقد تمثل في هذا الكلام بأربع مقامات من مقامات الإحسان أنه دعا لهم فقال: اللهم اغفر لقومي.

• وهل يجوز الدعاء بالمغفرة للكافر؟

جمهور أهل العلم على أنه يجوز الدعاء بالمغفرة للكافر ما كان حيا فإذا مات على كفره فتُبين أنه كافر فلا يحل الدعاء، فقال: "اللهم اغفر" فدعا لهم واستغفر لهم، ونسبهم إلى نفسه فقال: " لقومي "

ثم اعتذر عما فعلوه فقال: " فإنهم لا يعلمون "، أيُّ خُلُق هذا، وأيُّ سلامة صدر هذه، هؤلاء هم الأنبياء ليس في

قلوبهم حقدا لأحد، النبي ﷺ كان من أحب الناس إليه حمزة و وحشي بإذن من هند يفجر بطنه ويخرج كبده ويُفعل به ما أنتم تعلمون، ومع ذلك لما تأتي تبايعه

يقبل منها الإسلام !! أيُّ صفاء نفس هذا ؛ لأن العبرة هي الديانة، ليست مسألة شخصية و لا من قبيل العصبيات ولا غير ذلك.

قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ: أي ليس بي بُعد عن الحق وذهاب عنه.

وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وقال هنا مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أي ربكم الذي هو سيدكم ومالككم والذي يدبر أمركم والذي بيده ملكوت السماوات والأرض والذي يخلق ويرزق والذي يحيي ويميت، هو الذي أرسلني.

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦٢))

وهذه وظيفة الرسل يُجملها نوح عليه السلام في هذه الثلاثة :

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي: هذه واحدة . فهو مُبَلِّغ فصيح ؛ لأن البلاغ لا يكون إلا ببيان وفصاحة.

وَأَنْصَحُ لَكُمْ: وهو ناصح.

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ: أي هو أعلَمُهُم بالله جل وعلا.

فهذه الثلاثة من صفات كل رسول، أن يكون مبلغا فصيحا، ناصحا لقومه، وأن يكون عالما بالله فيما يبلغهم إياه.

– وهنا قال رِسَالَاتِ، وقلنا أن نوح عليه السلام لم تكن له إلا رسالة أتى بها إلى قومه ! فلم جُمِعَت ؟

١– قيل أن الجمع في رِسَالَاتِ إما لإختلاف الوقت أي أنه أرسل إليه بشيء من الحكم والمواعظ والأمر والنهي على فترات، فكانت رسالات من الله جل وعلا.

٢– أو أنه قد سبقه بعض الأنبياء كآدم عليه السلام وإدريس فكأنه يقول الرسالات التي أرسلوا بها أنا أتيت بها أيضا وأرسلت لكم بشيء جديد فأوكد ما أرسل قبله؛ لأن الرسالة واحدة وهي الدعوة إلى توحيد الله جل وعلا.

وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ: وهكذا كل نبي ورسول يعلم من الله ما لا يعلمه قومه لذلك أنظر إلى يعقوب عليه السلام يقول لبنيه وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، فعِلم الرسل وعلم أتباع الرسل من ورثة الأنبياء، أعلى من علم قومهم ؛ ولذلك فهم أشفق الناس على الناس لماذا؟ لعلمهم بالله ولعلمهم بأن هؤلاء يجهلون أشياء كثيرة فيشفقون على الجاهل ويعلمونه.

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣))

يقول ما الذي يثير إعجابكم وإغراءكم ؟

أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ: أي موعظة من الله جل وعلا.

عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ: أي من جنسكم يتكلم بكلامكم وهو بليغ فصيح يخاف عليكم ويريد الخير لكم يعايشكم فتعرفونه أوعجبتم من ذلك؟!

وهذا من لطف الله جل وعلا بعباده أنه يرسل رسولا من جنسهم، وتخيل لو أن الرسول كان مَلَكا ما الذي سيحدث؟ لن يستطيعوا معايشته ؛ ولذلك قال الله جل وعلا: "وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ" أي سنشبه لهم هذا الملك في صورة إنسي حتى يتعاملون معه، فأرسل الله رسولا أدميا بشريا، ولذلك يعرفون مدخله ومخرجه يعرفون هديه وسيرته يتعلمون منه حين يَعبدُ الله جل وعلا فيتأسون به، ولو كان ملكا لعلهم ما أطاقوه، تخيل لو أنه مَلَك فيظل صائما لا يأكل ويظل قائما طوال الليل ويفعل ما يؤمر به، من الذي يطيق ذلك؟ سيعجز الناس عن متابعته.

لِيُنْذِرَكُمْ : والإنذار كما سبق أنه إعلام مشوب بالخوف أي بتخويفهم من عذاب الله جل وعلا

وَلِتَتَّقُوا : أي بامتثال أمر الله والإنتهاء عن نهيه، ولتتقوا أيضا عذابه، فتكونون في وقاية منه وستر.

وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ: لعل للترجي، والترجي ما هو؟ ذكرنا هذا الكلام في التفريق بين الترجي والتمني ، فالترجي: شيء سهل حصوله أو حدوثه. وأما التمني : لشيء متعذر أو متعسر.

ولذلك ذكرنا ألا ليت الشباب يعود يوما، فلن يرجع مرة أخرى فهذا شيء متعذر.

وقد يحدث أحيانا تناوبًا بين لعل وليت ولها شواهد، ولكن العام أو الأغلب أن ليت للتمني أو متعذر الحدوث أو متعثر، ولعل تأتي لشيء يكون سهل الحصول أو يمكن الحصول عليه، ولذلك ضربنا مثالًا : لو كتبنا مع تمنياتنا لكم بالنجاح، هذا تمني إنما الصحيح أن نقول مع رجائي بالتوفيق لأن هذا شيء يمكن حصوله.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ (٦٤))

فَكَذَّبُوهُ: أي فكذبه قومه ولم يؤمنوا به واستمروا على كفرهم وقد أعلمه الله جل وعلا بذلك ؛ فإن الله جل وعلا قال له "أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ"

فهنا دعا عليهم قال "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا" دعا عليهم.

فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ: أي لما دعا فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء، فدعا الله جل وعلا أنه مغلوب لم يعد له حيلة مع قومه وأعلمه الله أنه لن يؤمن إلا من قد آمن فدعا عليهم وقال "إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً"

• ولكن كيف عرف نوح أنهم لم يلدوا إلا فاجرا كفارا؟

لأنهم كان عندهم مدرسة وهي: إذا وُلد لهم مولود أعطوه هذا المقرر "نوح – والعياذ بالله –كذاب، نوح في ضلال ... إلخ الإفتراءات" وكان يُوصي بعضهم بعضا بعداوته، فعَلم أنه لن يُجدِ معهم شيء، فدعا عليهم ؛ ولذلك انظر في أول الآيات إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ، فلما تيقن من أنهم هلكى، دعا عليهم، ولذلك هو لم يدعُ إلا مع التيقن ؛ لأن

بعض الناس الآن يدعو مباشرة "ربنا يأخذهم، ربنا ينتقم، ربنا .. إلخ " كأن الأمور قد حُسِمت ! ولكن ينبغي أن يصبر و يدعُ لهم بالهداية.

– لذا كان الرسل هم أرحم الناس بالناس، وأشفق الناس على الناس، يجهلون عليهم ويحلمون، يُسَفهون منهم ويدعونهم إلى الرشاد هؤلاء هم الرسل وأتباع الرسل.

فِي الْفُلْكِ: أي في السفينة، وهذه السفينة ذكرت في أكثر من آية تمنُنًا من الله على عباده "وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ" المملوء، وقال تعالى "إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ"، فهذا هو الفلك، وهذا هو جزاء أهل الحق المحقين.

وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا: كذبوا بالآيات أي جحدوها وأنكروها، وسبب التكذيب هو السبب في الإغراق.

"إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ": والعمين جمع عمن وهو أعمى القلب، كما قال تعالى "فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"، أي إذا سألت عن العمى الحقيقي هو عمى القلب، فعمى البصر بالنسبة لعمى القلب لاشيء ، لماذا؟

لأن أمر الباطن هو عليه مدار الأمر ولازمه وهو الذي يحرك الظاهر.

هنا تأتي النهاية الأولى لأول قوم على وجه الأرض من الكفار، وهي الإغراق بالماء، فكل قوم كان جزاؤهم من جنس عملهم، أي كل عقوبة نزلت من جنس عمل القوم الذين فعلوه كيف؟

• لماذا قوم نوح كانت عقوبتهم بالإغراق؟

يقول أهل العلم أن الشرك نجس، كما قال تعالى (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)، فكيف تُطَّهر النجاسة؟ بالماء ، فأرسل الله عليهم الطوفان فأغرقهم، أزال نجاستهم بالماء، وهذا من لطيف فعل الله جل وعلا.

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٦٥))

– ثم ذكر الله جل وعلا قصة عاد، وقبيلة عاد كان مسكنهم بالأحقاف كما في سورة الأحقاف،

والأحقاف هي حبل الرمال، و حبل الرمال: هو ما طال وامتد وارتفع من الرمل وكانت مساكنهم هذه بين رومان وحضرموت يعني باليمن.

وَإِلَى عَادٍ: أي وأرسلنا إلى عاد وهي قبيلة عاد، أخاهم هودا.

أَخَاهُمْ : أي مَن كان نسبه فيهم أيضا ولذلك فهو يقول بعد ذلك.

قَالَ يَا قَوْمِ: إذن نسبه فيهم، فالأخوة هنا أخوة النسب، وليست أخوة الوطن ولا القومية، ولا الرأسمالية، ولا الإشتراكية، ولا أخوة في هذه المناهج، إنما هي أخوة نسب،

وقال بعض أهل العلم : أيضا أنه كان أخوهم، بمعنى: من كان معهم ساكنا، بدليل أنك تقول يا أخا العرب أي هي أخوة مرتبطة بشيء، ولكن الأقرب للصواب هو قول أخوة النسب، وأنه أخوهم بما له نسبه فيهم.

– أما الأخوة الأخرى وهي أخوة الإيمان فهي منفية عن كل كافر لقول الله جل وعلا (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)، وإنما: من أساليب القصر والحصر فالأخوة الإيمانية إنما هي لأهل الإيمان فقط، ولذلك في الحديث "حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" وفي بعض كتب الحديث: "حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه"، وإن كان بعض أهل العلم رحمهم الله حمل أخيه على الإطلاق، أي حتى أخيه الكافر فيحب له الإسلام ويحب له أن يُهدى.

وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا: ذكر الأخوة أيضا يدل على مدى القرب فهم يعرفونه.

"قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"

إذن نوح عليه السلام قال " يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" كما مرّ معنا وهود عليه السلام يقول "يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ"؛ لتعلم أن المفاصلة والخصومة بين الرسل وبين أقوامهم ، إنما كانت في توحيد الإلهية ، ولم تكن في مسألة أن الله هو الخالق والرازق والمحيي والمميت والمدبر، إنما كانت في مسألة: لمن تصرف العبادة؟

"قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ" أيضا نفي وإثبات.

أَفَلَا تَتَّقُونَ: الفعل أتى مطلقا، أي لم يقل أفلا تتقون الله، أفلا تتقون عذابه، أفلا تتقون كذا، إنما أتى مُطلق ؛ ليشمل كل ذلك.

أَفَلَا تَتَّقُونَ: أفلا تتقون سخط الله وعقابه تتقون ناره تتقون بامتثال أمره وترك نهيه إلى غير ذلك.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦))

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ: أي الكبراء والسادة من قومه من الذين كفروا بالله وكذبوا رسوله.

إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ: أي في حمق وطيش، وقيل في خفة حِلم، اتهموه بأنه سفيه والعياذ بالله، وليس هذا فحسب !

• قالوا إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ و لم يقولوا إنا لنراك سفيها ..ما الفرق؟

كلمة فِي سَفَاهَةٍ عبروا بالظرفية أي أنه فيها، ولذلك جعلوا السفاهة ظرفا، أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، انظر! حتى البشاعة في القول !

وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ: الظن هنا في قولهم معناه الإعتقاد الجازم، أنهم اعتقدوا اعتقادا جازما أنه كاذب والعياذ بالله فيما يدعون.

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨))

نفس الجواب ! مشكاة واحدة ! .. انظر بين نوح عليه السلام وبين هود مسافة من الزمن، ومع ذلك الردود واحدة، سبحانك يالله !! "اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ"

" أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ"

هنا أكد مسألة التبليغ أُبَلِّغُكُمْ فهناك بلاغ وفصاحة وهو نَاصِحٌ أيضا والناصح بمعنى المُريد الخير لقومه ولذلك يقولون أن النصيحة هي إرادة الخير للمنصوح له، إرادة وفعلا، أو طلب الخير للمنصوح له، إرادة وفعلا، فهو مريد من قلبه الخير لهم، ويفعل معهم أيضا ما يكون لهم خيرا ؛ ولذلك كلمة الناصح تأتي على معنيين :

١ـ هذا هو المعنى الأول، وهو إرادة النصح للمنصوح له.

٢ـ وتأتي أيضا بمعنى إلتئام الشيء، فليس بينه تنافر، ولذلك يسمون الإبرة : المنصحة لماذا؟ لإنها تُلئِم طرفي الثوب وتخيطهم، فلا يبقى بينهما تنافرًا.

و لذلك يسمون الخياط بالناصح ؛ لأنه يعمل بالمنصحة (الإبرة) التي تُلئِم الأقمشة.

أَمِينٌ: أي أمين في البلاغ فلا أزيد ولا أنقص ولا أكذب.

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩))

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ: موعظة من ربكم.

(عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ): لم يجدوا شيئا يردوا بها إلا أنهم يتهمونه أنه رجل ! فما التهمة في ذلك ؟!

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ): أي يقول اذكروا نعمة الله جل وعلا عليكم واشكروه لأنه جعلكم تخلفون قوم نوح الذين أهلكهم الله بكفرهم يعني أن الكفار قد غرقوا، ثم جعل الله ذرية نوح هم الباقيين في السفينة، فتكاثروا وكثروا، هذا بفضل من؟ بفضل الله وحده، فيقول لهم اذكروا هذه النعم، ولذلك أول طريق اليقظة، هو تَذَكّر نعم الله جل وعلا، ولذلك ابن القيم في مدارج السالكين يسميها الضوء الذي يبعث أولا، قال: الوقوف على النعم مع اليأس على عدها والوقوف على حدها ومعرفة المنة بها.

– ولذلك كان النبي ﷺ بأبي هو وأمي في الصباح والمساء يقول ذلك: "وأبوء لك بنعمتك عليّ" أبوء يعنى أعترف "وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"

يعيش بين هذين الجناحين مشاهدة النعم ورؤية تقصير النفس، فالإنسان هنا يعتدل مساره، أما من لم يرَ نعم الله عليه، ولم يرَ تقصير نفسه سيحدث عنده عجب وكبر إلى غير ذلك فيرى القذى في عين أخيه وينسى الجزع في عينيه، لذلك من أروع الكلمات التي قيلت: إن أُعطيت ورقة إجابتك لك، وأنت لا تدرى متى تسحب؟ فاهتم بالإجابة في ورقتك، ولا تلتفت إلى ورقة غيرك.

وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً: يعني سعة فالله جل وعلا أعطاهم عِظَمة في الأجسام وقوة وشدة، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى وصفهم بقوله "وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ"

فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ: أي نعمه.

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ: فالذي يذكر نعم الله جل وعلا ويتذكر ذنبه يقبل على ربه فيرى نفسه بالفقر، ويرى ربه بالغنى،

يرى نفسه بالجهل، ويرى ربه بالعلم التام، يرى نفسه بالضعف يرى ربه بالقدرة التامة، فهنا يُقبل على الله جل وعلا فيفلح أي يتحقق مطلوبه ويفر من مرغوبه.

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠))

"قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ" إذن هم على دراية وفهم !

وَنَذَرَ: أي نترك، فإذن كلمة التوحيد معناها عبادة الله وحده وأن تترك ما عُبد من دونه.

مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا: هنا احتجوا بالتقليد للآباء قالوا كيف نترك ديننا ودين آبائنا ؛ ولذلك في الحديث في مسند أحمد من حديث سبرة بن أبي الفاكه أن النبي ﷺ قال: إن الشيطان قد قعد لابن آدم بأطرقه كلها فإذا أراد أن يسلم قعد لهم في طريق الإسلام قال أتترك دينك ودين آبائك وآباء آبائك .. إلخ الحديث "، وهذا الذي جعل أبو طالب يكفر والعياذ بالله وهو التمسك بالتقليد قال له أتترك ملة عبد المطلب قال على ملة عبد المطلب، (قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ) ومقتدون.

"وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ" تحدوه.

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١))

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ" أما الرجس بمعنى العذاب، وأصل كلمة رجس معناها : اضطراب يحدث لما يحل بالشخص، فإذا نزل العذاب اضطرب.

– وقال هنا قد وقع عليكم رجس ؛ لأن هذا الأمر المتوقع، يقيني الحدوث فأُنزل منزلة الحاصل، كما في قوله تعالى "أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ"، بمعنى سيأتي يقينا، فيُعبر عنه بالماضي.

وَغَضَبٌ: أي غضب من الله جل وعلا.

أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ":

فهي مجرد أسماء، أتوا على صنم سموه إلهًا ! لذلك قال مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ، ليس عندكم حجة ولا دليل فنحتاج أولا أن نثبت الحجة والدليل ثم نسمّيها ! إذن فليس لها حقيقة.

فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ: في هذه الآية بعض الأشياء من الفوائد منها :

- أن المبطل مذموم في جداله والواجب عليه النظر ليعرف الحق يعني ها جادلوا في الأسماء فقط وليس في الحقيقة.
- في قوله تعالى مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ دليل على أن المعارف مكتسبة فالعلم له أدلة فيكتسب.
- وكذلك أيضا تدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ (٧٢))

قَطَعْنَا دَابِرَ: بمعنى استئصلناه لأن الدابر هو آخر الشيء، ولذلك بعض أهل العلم في الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لمعاذ قال إني أحبك إني أحبك إني أحبك فلا تدعن دبر كل صلاة

أن تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك "فقالوا: دبر كل صلاة يعني في آخرها، و الدبر جزء من الشيء، فيقول قبل السلام هذا الدعاء، هذا ترجيح بعض أهل العلم، فإذن قطعنا الدابر بمعنى: أننا قضينا على الأول إلى الآخر، بمعنى الاستئصال استأصلناهم بالهلاك، لماذا؟

– لأنهم "كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ" ، ولكن لماذا أكّد وقال وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ؟

حتى إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير، زاد في رغبته له وتعظيم قدره عنده ؛ لأن الآية في أولها " فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا " فقد يظن ظان أن هناك بعض الناس نجوا بلا إيمان، وإنما نجوا برحمة الله، وقد تكون الرحمة أصابت من ليس بمؤمن ؛ لذا قال في آخر الآية " وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ "، حتى يبين أن الرحمة أصابت أهل الإيمان فقط، ولما انتفى عن هؤلاء الإيمان وثبت عندهم التكذيب، وقد استأصل الله قوم عاد أيضا بعقوبة من جنس ما كانوا فيه من الكبر ، فزادهم الله جل وعلا بسطة في الجسم ووصفهم بقول " وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِين "

فلما عتوا كما قال تعالى: " فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ"، فقد استكبروا بنعمة الله ولم يروا الفضل لله جل وعلا، فتكبروا ولم يقبلوا دعوة الرسل بقولهم " وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً " فماذا كانت عقوبتهم ؟! كانت بأنهم أُهلِكوا بالريح، كما قال تعالى "وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ"

الريح الصرصر: هي الباردة، والعاتية: أي شديدة

"سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا" حُسُومًا يعني متتابعا

"فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ"

مفرغين ، لا قيمة لهم، هؤلاء من كانوا يقولون: مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

فرُّغت الرؤوس وأهينت، بعد ذلك فرّغوا من داخلها صاروا كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

فكان جزاؤهم من جنس عملهم، استقووا فأرسل الله عليهم أضعف شيء، الريح اللطيفة ولكنها إذا كانت مأمورة بأمر الله صارت من جند الله جل وعلا، لا يقاومها مُقاوم.

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣))

– قلنا من بداية قصة نوح عليه السلام أن هذه نماذج حية عاشت قبلنا لفريقين من الناس :

١- أما الطائفة الأولى فهم الرسل وأتباع الرسل، وكيف أنهم كانوا على منهج الله جل وعلا، فعاشوا عليه وعملوا به، ودَعوا إليه، وصبروا على ذلك كله وكانت العاقبة لهم فى الدنيا بالنجاة، وفى الآخرة بجنات النعيم على سرر متقابلين.

٢- وأما الطائفة الأخرى فإنها المعاندة المتكبرة، التى استكبرت على هذا المنهج، وبيّن الله جل وعلا كيف هى عاقبتهم فى الدنيا بالهلاك والدمار والشنار، وكيف عاقبتهم فى الآخرة – نعوذ بالله من حالهم

– هنا أيضا بداية لقصة جديدة :

(وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) : أى و لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا يدعوهم لتوحيد الله جل وعلا، وأما ثمود فمساكنهم مشهورة وهى بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله، فهذا مكانهم.

وثمود هذه تسمى بعاد الثانية ؛ لأن الله جل وعلا قال (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وثمودا فما أبقى)، أهلك عادًا الأولى وثمود هى عادًا الثانية.

(وَإِلَىٰ ثَمُودَ): هذه الكلمة جُرّت بالفتحة ؛ لأنها ممنوعة من الصرف، وكما قلنا –أن الأقرب– أنها اسمًا للقبيلة، وهى مأخوذة أصلا من الثمد: ومعناه قلة الماء ؛ لأنهم –كما سترون– كان عندهم بئر يشربون منه، ويبدو أن الماء كان قليلا، يكفى الحاجة لهم.

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) : إذن هى نفس الدعوة ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)

(اعْبُدُوا اللَّهَ) إثبات (مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) نفى للإلهية عما دون الله جل وعلا.

(قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ): البينة بمعنى الآية الواضحة التى تدل على صدق ما جاء به صالح من دعوتهم إلى توحيد الله جل وعلا فهو برهان من الله على صدق ما جاء به.

ما هذه البينة ؟ قال (هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً)

فهؤلاء القوم – قوم ثمود – قد طلبوا من رسولهم أن يريهم آية حتى يؤمنوا، فطلبوا منه أن يخرج لهم ناقة من صخرة، فدعى الله جل وعلا فرجفت الصخرة فخرجت منها هذه الناقة، فقال (هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ) وإضافتها هنا من باب أنها من خلق الله جل وعلا، إضافة مربوب لباريه سبحانه وتعالى وهى إضافة تشريف أيضا.

يقول انتبهو أنكم طلبتم هذه الآيه، فجائتكم من الله جل وعلا.

(فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ) : وهنا قال فهى ناقة الله وذروها تأكل فى أرض الله ونبههم إلى أن هذه الناقة تحتاج إلى أن تشرب (لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)، هم يشربون الماء يوما ثم اليوم التالى يكون للناقة، فتشرب الماء، فإذا شربت فى هذا اليوم، ما يشربون هم؟ يشربون لبنها وكان لبنا لذيذا وطعمه جميل، فيوم ماء ويوم لبن آية من آيات الله جل وعلا، ولم يتكلفوا ولم يستوردوها، بل طلبوها من رسولهم فخرجت.

فقال ذروها : أى اتركوها تأكل فى أرض الله، إذن فليس عليكم أيضا مؤنتها فالمؤنة أيضا لن تتكلفوا فيها شيئا فهى ستأكل مما يخرجه الله لها، تأكل فى أرض الله.

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ): فلا تصيبوها بأذى لماذا؟

(فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): أى بسبب إيذائها يصيبكم عذاب موجع.

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤))

(وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ): أى احمدوا الله جل وعلا على هذه النعم أن جعلكم خلفاء فى الأرض، عادٌ هلكت وأنتم تعلمون وأنتم الآن أحياء ترزقون، فالله جل وعلا بعث إليكم رسولا وامتن عليكم بنعم كثيرة جدا، فاحمدوا لله جل وعلا، هذا الأمر فهم خلفوا هؤلاء القوم الهلكى فاحمدوا الله جل وعلا، أنكم لم تهلكوا وأنتم قد أتيتم بالكفر كما هم أتوا بالكفر، وكانت بينهم تجارات تذهب وتجيء والمسافة بينهم و بين قوم عاد لم تكن كبيرة، والدليل أنهم لم يعترضوا عليه حينما قال لهم (جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ)، فلم يقولوا مَن هؤلاء؟ فهم يعلمون ويقرون بهلاك عاد ولكنهم يجحدون بقلوبهم وينكرون هذا أو أنهم يرجعونها للطبيعة كما هى عادة بعض الناس.

(وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ): أى أنزلكم فيها تتمتعون بها.

(تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا): أى تبنون فى سهول الأرض قصور أو يأخذون من السهول المادة التى يبنون بها أيضا فى السهول فعلى هذا أو هذا، أنهم كانوا يبنون القصور .

• وفى هذه الآية دليل لمن أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها ؛ لأن بعض الناس تعدُّ ذلك من السّرَف فهذا ليس سرفا وذكر لمحمد بن سيرين رحمه الله أن ابنا له بنى بيتا وأنفق فيه كثيرا، فقال: ما أرى بأسا أن يبنى الرجل بنائا ينفعه طالما أنه ينتفع به حتى ولو أنه غالى الثمن فلا بأس به. والدليل على ذلك: ما مر معكم فى أول السورة، قال تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) فهذه من الأمور الطيبة، فالبعض ينكر بلا دليل، والأحاديث التى استدل بها الفريق الآخر، ضعيفة فى عدم البناء.

مع أن الله جل وعلا كما قال النبى ﷺ (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)

– فمن أثر النعمة المسكن الصالح والملبس الصالح، هذه من آثار النعمة التى يحب الله جل وعلا، أن يراها على عبده ؛ لأن البعض يقول هل هذا الزهد الذى يجب من المشايخ ! فينكرون إذا ركب سيارة غالية وكأنه وجب عليه أن يركب ما تدنى من السيارات!! و الصحيح أنه يجوز له أن ينفق بلا سرف بإحتياجه حتى لو احتاج من الملبس النظيف " قالوا يا رسول الله : إن أحدنا يحب أن يكون ملبسه حسنا ونعله حسنا، هل هذا من الكبر؟ قال: الكبر، غمط الحق وبطر الناس "، فهذا من أثر نعمة الله جل وعلا على عبده وليس من الكبر.

(وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا): قيل أنهم كانوا يبنون البيوت ولطول أعمارهم كانت تتآكل، فجعلوا يبنون البيوت من الجبال، إما أنهم يقطعونها ويبنون البيوت من صخورها حتى تبقى، أو أنهم كانوا يصنعون بيوتا فى الجبل نفسه، فتكون

قصور صيفا ويدخلوا فى هذه البيوت المنحوتة شتاءا ولذلك قال تعالى فيهم :(الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) فجابوا بمعنى قطعوا الصخر.

(فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ): وكما قلنا فى قصة عاد أن ذِكر آلاء الله جل وعلا، هي أول بصيرة ؛ حتى يرى العبد فضل الله جل وعلا عليه فإذا أبصر ذلك عرف عظمة ربه، ورأى تقصير نفسه وجنايتها،فهنا يخضع ويذل لله جل وعلا فالنعم كثيرة مترادفة عليكم.

(وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ): أى ولا تسعوا فى الأرض بالفساد ويكون ذلك بالوقوع فى الكفر، والشرك، والآثام، والمعاصى والعياذ بالله.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥))

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ): الملأ أى السادة أو الرؤساء وبالمصطلح الحاصل أي النخبة، وهنا ذكرهم بالوصف " استكبروا " فما زالت معنا مدرسة إبليس ، فالسورة افتتحت بقصة آدم عليه السلام مع إبليس وهنا الأمراض ما زالت تنتقل فى الأمم جيلا بعد جيل (مرض الكبر).

(لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ): استضعفوهم من أجل الإيمان.

(أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ): وهنا السؤال على سبيل الإستنكار، فالحامل على بغضهم لدعوة صالح يظهر أنه الكبر بمعنى بطر الحق أى رد الحق وغمط الناس، أى أنهم ارتكبوا الجريمتان، الجريمة الأولى يعلمون أن صالح صادق، ورغم ذلك ردوا عليه فهذا بطر الحق وكذلك غمط الناس، أى: احتقار الناس، ولذلك (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)

فسيأتى معنا فى هود قول قوم نوح له :(وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي)، أي الضعفاء

فمسألة الكبر فى الحالتين كِبر على الحق، وكِبر على الخلق، هنا كما نرى أهل الإيمان المستضعفين وقد رد أهل الكبر ردا آخر، هم سألوا عن صالح عليه السلام (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ)

فالجواب الطبيعى، نعم نعلم أنه مرسل من ربه ولكنهم تركوا هذا السؤال وهذه الإجابة، وأجابوا بما يسمى بأسلوب الحكيم (قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) فإننا قد أيقنا بالإيمان بما جاء به ويلزم من ذلك أننا من باب أولى مؤمنون به فكأنهم أجابوا عن مسألتين :

فالسؤال الأول (أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ) إن أجابوا بنعم ، سألوهم وهل تؤمنون بما جاءكم به ؟

فإختصارًا قالوا : نحن مؤمنون بما جاء به فهو صادق مرسل من ربه.

فهذا أسلوب الحكيم يكتفى السائل والمخاطب أن يرد المخاطب على السائل بخلاف ما يترقب؛ تنبيها إلى ما ينبغى أن يسأل عنه (ماذا جاء به؟) هذا الأَولى بالسؤال فنحن مؤمنون بما جاء به وهو صادق.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦))

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ): فتظهر علامات الكبر واضحة فلم يقولوا بما جاء به فالترتيب : (قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ) الرسالة نحن نؤمن بها وهو صادق.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)، فلم يقولوا بما جاء به صالح، كأن المسألة مسألة كبر حقيقى، فأنتم أيها الأراذل الضعاف، أنؤمن بما آمنتم به ؟!! أبدا ! والعياذ بالله.

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧))

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ): قيل أنهم ضاقوا ذرعا بالناقة، فقال أشقى القوم: أنا أخلصكم منها، فقام إليها، والجميع يرتقب قتلها وبعضهم حرض على قتلها وبعضهم دل عليها ؛ ولذلك قال فعقروا الناقة مع أن من قتلها واحد ! (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) فهو شقى قام فنحرها وعقرها فعقروا الناقة أي نحروها، ولذلك كما عند مسلم خطب الرسول ﷺ فذكر الناقة وذكر الذى عقرها فقال (إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا) انبعث لها رجل عزيز عارم منيع فى رهطه مثل أبى ذمعة،

عارم: أى شرير مفسد ،

عقرها: أى جرحها وقيل قطعها بما يقطع النفس، والعقر للناقة بمعنى الذبح، وفى الخيل ضرب القوائم بالسيف.

(وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ): أى استكبروا عن الإمتثال لأمر الله جل وعلا.

(وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ): فإن كنت مرسل إئتنا بما تعدنا ؛ استعجالا لهذه العقوبات، فهذا يعطيك مشهد اللامبالاة، وكم هم فى سكر بهذا الكبر عياذا بالله جل وعلا، فالعذاب سينزل بهم ومع ذلك هم لا يأبهون لذلك ؛ لأنها من عند الله ودلالة على صدق صالح وهذا ما لايريدونه، فصالح يتبعه الأرذلون الضعفاء وأهل الباطل دوما يضيقون ذرعا بأهل الحق فلا يطيقون ذرعا مصلى وهم للصلاة تاركون فكيف يكون متصدق متطهر ؟

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨))

(أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ): فهم استعجلوا العذاب فأخذتهم الزلزلة الشديدة، فأصبحوا فى مدينتهم ومكانهم، فالدار المقصود بها الجنس فهم فى ديارهم أى جنس الدور كلها.

(جاثمين): أى أنهم صاروا صرعى التصقت أرجلهم ووجوههم بالأرض فأصبحوا خامدين لا حراك لهم.

ولكن لماذا العذاب كان بالرجفة ؟؟ الرجفة لأن كل أمة تعاقب بمثل فعلها، فمن جنس فعلهم عوقبوا ، فهم لما عقروا الناقة وذبحوها صاحت الناقة فكانت عقوبتهم الصيحة التى زلزلتهم بشدة وبمثل ما عانته عند النزع وطلوع الروح عوقبوا به فالصيحة ثم الرجفة عقاب لهم بمثل ما فعلوا بالناقة.

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ(٧٩))

فتولى عنهم بعد الإياس، وبعدما فعل معهم كل ما يدعوهم به إلى الله جل وعلا وإلى الحق وهم ما قبلوا فتولى عنهم وأعرض عنهم.

وقال لهم (يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي): وقلنا أن البلاغ بفصاحة كى لا يختلط عليهم الخطاب.

القاعدة الأصولية أن المفرد المضاف يفيد العموم فحتى إن كانت الرسالات متتالية فهى متتابعة أيضا، كل هذه الرسالات فرسالة ربى معناها رسالات ربى والله أعلم.

فهل قال هذا الكلام بعدما أخذتهم الرجفة وماتوا أم قبلها ؟ الظاهر من الآيات أنه قبلها، وهذا الأظهر وإن كانت الآية تحتمل المعنى الآخر أنه قال ذلك بعدما هلكوا، كما فعل الرسول ﷺ مع صرعى بدر، فقال: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، قالوا: يارسول الله تكلمهم وهم موتى ؟ فقال : ما أنتم بأسمع منهم الآن.

هم يسمعون ولكن لا يستطيعون الإجابة، فهل هذا من قبيل هذا ؟، أم الظاهر أنه قال لهم ذلك، وتولى عنهم لما علم أن العذاب ينزل بهم ؟ فهو كان معهم الثلاث أيام إنما تركهم لمصيرهم هذا بعدها.

ولماذا الثلاث أيام ؟ لأنه كان للناقة ولد وحاولوا قتله وبعض الروايات تقول قتلوه، و البعض يقول أنه ذهب للصخرة التى خرج منها مع أمه ثم رَغى ثلاث مرات، والروغان للإبل أى صوت الإبل، صوتت ثلاثا فمن هنا قال صالح إن لكم ثلاثة أيام بثلاث صيحات منها والله أعلم لأن المسألة اجتهادية فقط، فليس فيها دليل ولا نص، المهم أنه أبلغهم رسالة ربه.

(وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ): فمع حرصه وإرادته الخير بهم قولا ونية، مع ذلك هم لا يحبون الناصحين عياذا بالله جل وعلا وهذا فيه دليل ألا يأنف الإنسان من النصيحة إذا كانت بحق وأنه يقبلها ولا يتعالى عليها حتى لا يكون شبيه من هذه الصورة والعياذ بالله تعالى.

(وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ (٨٠))

أى ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه ليدعوهم لتوحيد الله جل وعلا والبُعد عن معصيته فقال لهم مستنكرا : أتأتون الفعلة المنكرة المستقبحة ؟؟ وهى اللواط والعياذ بالله.

(أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ): وفيها دليل على أن هذه الفاحشة من جنس الزنا لأن الله جل وعلا لما ذكر الزنا قال: (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

إذن فهنا أيضا نفس القضية برمتها ؛ ولذلك قال بعض الفقهاء أن عقوبة هؤلاء عقوبة الزناة، ولكن حينما نأتى للعقوبة سنذكر الراجح بإذن الله.

(أتأتون الفاحشة): استفهام على سبيل الإستنكار.

(مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ): أى لم تكن قبلكم فى أمة من الأمم ، حتى لا يقولوا : وجدنا آبائنا هكذا، إنما كانت البداية منهم عياذا بالله جل وعلا، يقول ابن سيرين ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار، فهو أمر مستنكر حتى فى الدواب.

(مِنْ): هنا تفيد العموم، أى لا أحد فعل ذلك.

كلمة (مِنْ أَحَدٍ): معناها لا أحد فعل مثل هذه الفعلة المنكرة، ثم بينها فقال :

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١))

الفطرة السليمة أن الرجل يشتهى المرأة، أما أن تنقلب الفطرة فيشتهى الرجل الرجل والمرأة المرأة فهذا أمر عجيب وهو مخالف للفطرة التى فطر الله الناس عليها.

(بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ): أى متجاوزون لحدود الله بخروجكم عن حد الإعتدال البشرى، وانحرافكم عما تقتضيه العقول السليمة والفطر الكريمة.

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢))

(يَتَطَهَّرُونَ): أى يتنزهون عن هذه الفعلة ، فهو قد أنكر عليهم، هذا الإنكار فى حد ذاته يسبب لهم ضيق نفسى فضاقوا به ذرعا و هذا الضيق تحول من ضيق قلبى، لضيق فى المكان، وكما قيل " ما ضاقت أرضا بأهلها، لكنها بأخلاق الرجال تضيق "

فالأرض واسعة لا تضيق فلماذا نضيق ببعضنا ؟ لأن الأخلاق ضاقت، فهم قد ضاقوا به، وهو لا يريد تركهم بل ينكر عليهم ويدعوهم دائما، وهذا يسمى نكاية قلبية فى قلوبهم فهم لا يريدون ذلك.

وقد قلنا من قليل هؤلاء يريدون الجميع مثلهم، فهذا يفرحهم إنما وجود طائفة تنغص عليهم ما يفعلون، فهم يريدون فعل المنكر فى راحة لكن عندما يجد مَن كلما رآه ذكّره أن هذا حرام وعليه أن يتق الله.

يحدث له نغصة فى قلبه لم يتحملها فأرادوا أن يخرجوه وهذا الإخراج سنة من السنن تذكرون قول ورقة بن نوفل (يا ليتني فيها جذعا يا ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك قال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم قال ورقة نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي)

– فالمثلية هنا تعنى المشابهة من كل وجه، فلم يقل له بشبه ما جئت به فلو أتيت بالشبه سيتركوك لأنه سيتبقى جزء فتوافقهم فيه فهذا ما يريدون، أما أن تمشى على الصراط المستقيم تماما يقولون: رجعى، متعصب إلى غير هذه الألفاظ الدارجة المعلبة على الألسنة.

(إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ): وكما قلنا هذه سنة (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا).

فهم يعتقدون أنها أرضهم، وسيأت المعنى فى قصة شعيب (لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا) وكأن أهل الإيمان ليس لهم وجود ولا حق فقط تعيش كمواطن درجة ثانية !

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٨٣))

فكانت النتيجة: النجاة ولما كانت إمرأته ستهلك تم استثنائها.

(الغابرين): الباقين فى العذاب فأصابها ما أصابهم من العذاب والعياذ بالله، وكلمة غبر تأتى بمعنى الباقين فكما قال الشاعر: فما ولى مُحَمَّد مذ أن غفر له الإله ما مضى وما غبر

والبعض يقول غبر بمعنى ما مضى وما بقى

والبعض يقول الماضى يسمى عابر (عبر) الماضى والباقى غبر أو غابر

– فهى بقيت وعذبت عذابهم عياذ بالله، والعذاب ذكر فى آيات أخرى بأن جبريل عليه السلام أُمر، فاقتلع قراهم من أصلها وقيل أربع قرى وقيل ستة نزعهم من أصلها ثم رفعهم إلى السماء وقلبت، ثم أتبعوا بحجارة من سجيل الطين المحمى والعياذ بالله.

– ولذلك بعض أهل العلم رأى أن عقوبة اللوطى أن يؤتى به على مكان مرتفع فيقذف فيلقى به ثم يتبع بالحجارة كما فعل الله بهم وهذا ما عليه جمهور السلف وهذا المروى عن الصحابة رضى الله عنهم، أن من فعل ذلك يقتل واستدلوا بالحديث الصحيح الذى رواه ابن ماجه والترمذى (من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به) فالفاعل والمفعول يقتلان.

١– والصحيح يقتلوا إذا كانوا محصنين أو غير محصنين على الراجح وهذا كان فعل السلف فالسلف اتفقوا على قتله واختلفوا فى طريقة القتل فهل يقتل بالسيف أم الرصاص أم الطريقة التى ذكرناها أم بالحرق فأختلفوا فى الطريقة مع الإتفاق على القتل .

٢– أما القول الثانى فهو لأبو حنيفة وعطاء وقتاده أنه يعزّر.

والصحيح أنه يقتل كما قلت فالإمام إن قتلهم بأى وسيلة جاز ، المهم أن يقتل.

– هذا بالنسبة للرجال، أما النساء فإذا أتت المرأة المرأة تسمى المساحقة، والصحيح أن هناك إجماع على حرمة ذلك أيضا وأنها من الكبائر ولكن ليس فيها حد بل فيها التعذير، فزوجة لوط كانت مواطئة لهؤلاء، تدلهم على الضيفان.

بعض أهل العلم يقولون أنهم ما كانوا يفعلون ذلك فى بعضهم البعض، بل ينتظرون الضيوف الذين يأتون للمدينة فكانت زوجته ممن يدل على الضيف.

وفى القصة السابقة واحد فقط عقر الناقة والقوم كلهم عوقبوا بالرجفة والصيحة فلماذا عوقبوا كلهم ؟

لرضاهم عن الفاعل ، فمنهم من رضى ، ومنهم من تمالأ، فكانت العقوبة واحدة و لذلك قال الله (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ) كلهم مذنبون فالقاتل واحد والباقى رضى، وهذه مصيبة كبيرة فبعض الناس قد يرى المنكر لكنه ينكره بقلبه ولا يستطيع غير ذلك فهذا قد فعل الواجب عليه والبعض قد يكون قد غاب عن المشهد ولكنه رضى بما حدث فيأثم إثم الفاعل والعياذ بالله كما قال النبي (فهما فى الوزر سواء) رغم أنه لم يفعل شيء، فقط بمجرد النية،

فالعقوبة تنزل على الجميع إذا رضى الجميع لأنهم يكونون بمثابة الدافع له على ذلك.

– فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فريضة مجتمعية لابد أن يقوم المجتمع كله بمثل هذا الدور؛ لأنه يكون كجهاز المناعة فى الجسم.

–لذلك فى حديث الاقتراع على السفينة (فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا)، فهو سيثقب فى السفينة من أسفلها ونحن فوق سنغرق معه إن لم نأخذ على يده ستهلك معه.

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤))

– فعقوبة قوم لوط كانت من جنس ما فعلوه فلما قلبوا الفطرة قلبهم الله جل وعلا، فبدلا من أن يأتوا النساء أتوا الذكران فهم قلبوا الفطرة فقلبت قراهم.

– ولأنهم لما تلذذوا بذلك وتلذذت أبدانهم عوقبوا بالألم فيها بالرجم بالحجارة ليصيبهم بالألم فى أبدانهم، ولذلك بعض الناس فى مسألة جلد الزانى غير المحصن أو رجم الآخر يقول الذى فعل الفعلة هو العضو فقط فلماذا يضرب الجسد كله ؟ لأن الجسد كله شارك واستمتع فكانت العقوبة للجميع، فهى عقوبات عادلة (وما ربك بظلام للعبيد) سبحانه وتعالى.

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥))

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا): أى ولقد أرسلنا شعيبا إلى مدينة أو قبيلة مدين، و هى بقرب طريق الحجاز فأرسل الله لهم شعيبا.

(قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ): نفس القضية عبادة الله وحده وقد قلنا سابقا أن دعوة التوحيد عليها إجماع الرسل.

(قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ): بينة أى برهان من ربكم واضح على صدق ما أتى به، فقد ذكرتُ سابقا البينة فى قصة صالح بأنها ناقة الله، أمّا هنا فلم تذكر البينة لم يذكر لشعيب معجزة أو آية.

١– و المفسرون يقولون أتى بالبينة ولكنها لم تذكر

٢– وبعض أهل العلم قال أن البينة شعيب نفسه كما فى سورة البينة: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ)، فالبينة هى الرسول معه أوامر من الله جل وعلا تدل على صدقه، فالبينة حقيقتها ما يبين به الحق، فهو أتاهم بما يبين به الحق وهذا أرجح تعريف للبينة إذا ظهر الحق بأى شىء فهو البينة.

فالبينة على المدعى: بمعنى أن يأتينا بالبينة ما يبين به لنا أن ما معه هو الحق شىء مكتوب أو اثنين شهود، أى شىء يدلنا على أنه معه الحق، فشعيب كان معه ما يظهر به أنه على الحق.

(فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ): هنا أمران التوفية أن يعطوا حق الكيل والميزان تاما.

(وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ): البخس نقص الميزان والمكيال وهذا يحدث عن طريق التدليس والخفية فهو ليس ظاهر، وإلا كان غصبا، فهو يوهمك أن الميزان راجح وهو ليس كذلك فهذا البخس وهذا نهى عن النقص، فهنا دليل على وجوب الوفاء والإكمال لهؤلاء.

لذلك قال تعالى : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ. الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) فإذا أخذ من الناس كيلا يطلب الزيادة أما أن كان الكيل عنده يوزن للناس يخسرون (أَلا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) فليس هناك علاج لمنع الناس من التطفيف فى الكيل والميزان إلا التخويف بالآخرة فلو لم يخاف البائع من الله سيطفف فى الكيل والميزان، ولو خاف الله جل وعلا سينتهى عن مثل هذا.

(وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ): أشيائهم مطلقة للتعميم فهم يفعلون ذلك كأنها خصلة ثابتة عندهم فيما دق وما كبر فمن أخذ ربع كيلو كمن أخذ طن سيُفعل معه نفس الفعلة والعياذ بالله.

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا): ومن بخس الناس أشيائهم: العيب فى السلع والتزهيد فيه والتقليل من ثمنه ولأن النبى ﷺ قال فى حديث أبى رقية تميم ابن أوس الدارى (الدين النصيحة)، وجرير ابن عبد الله قال (بايعنى الرسول ﷺ ... و فيه والنصح لكل مسلم) فمن باب النصح أن أقول له لا هى تساوى كذا بقيمتها الأصلية دون أن أبخس من ثمنها شيء فجرير ابن عبد الله لما أرسل الغلام ليشترى له ناقة فذهب فاشترى بالمال له ناقة ورد له الباقى فنظر للناقة وقال : هذه تساوى عشرة آلاف قال وأنا أشتريتها لك بخمسة آلاف – فتخيل لو بعثت أحدا ليشترى لك شيء فاشتراها بنصف ثمنها فسوف تعطيه جائزة – لكنه قال: أريني من ابتعت منه فرد للرجل ثلاثة ألاف مع السبعة يصبحوا عشرة، فقال الرجل أنا بعتها بسبعة قال: لا فهى تساوى عشرة آلاف وبايعنى الرسول ﷺ فيه و النصح لكل مسلم.

فالغبن فى السعر: هو الرد مع الفرق، والتاجر لا ينبغي أن يتمنى غلو السعر ليربح وإلا كان غير ناصح للمسلمين ، فالمحتكر غاش للمسلمين.

فصلاح الأرض ببعث الأنبياء لأن يدعون إلى الخير، والفساد يكون بالكفر والمعاصي ومنها المعاصي الإقتصادية فشعيب أراد إصلاح اقتصادى وهو مطابق للشريعة فيجب أن نقول للناس لا ترابوا ولا تبخسوا الناس أشيائهم وأوفوا الكيل و الميزان، فالشريعة أتت بذلك، و بكل ما هو صالح.

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ): وكانوا قطاع طرق وعشارين ومكّاسين كما سيتبين.

فإن آمنتم بالله جل وعلا زال الفساد والكفر وإذا امتثلتم أمر الله وانتهيتم عند نهيه وتركتم عدم الوفاء بالكيل والميزان، يحدث لكم الخير بما آمنتم ومنها الخير التجارى، فسيعرف عنكم أنكم توفون الكيل، كما كان يُعرف عنكم البخس، فالتجارة ستزيد ويقبل الناس عليكم ويذكرونكم الناس بالخير.

(وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦))

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ: توعدون أى تهددون من سلكه من الناس، وقيل أنهم كانوا قطاع طريق، ولذلك قال بعض أهل العلم أنهم مكّاسين أو عشّارين، يأخذون الأموال من الناس بدون وجه حق، وهنا على تفسير الصراط الحسى : أى أنهم على الطريق حقيقة يقطعونه

أو على الطريق المعنوى: أى أنهم يقطعون الطريق الموصل لشعيب لمن أراده ، فيكونوا بذلك قد صدوا عن سبيل الله .

وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ: أى من آمن بالله أو بشعيب.

و على كلا القولين سواء كانوا يقطعون الطريق لأخذ المعشار فهذا الطريق الحسى و يقطعون الطريق على من ذهب لشعيب ليتعلم ويؤمن به فيجتمع الطريقان فيكون واحد و من لازمه أنهم بفعلهم هذا يقطعون الطريق الموصل إلى الله جل وعلا بالإهتداء للنبى شعيب، وهذا دوما حال الظلمة وكثير من الناس، يكون قاطع طريق دونما يشعر، فكما قال ابن القيم فيمن يتكلم كلاما صحيحا، وأفعاله تكون فى بعد عن الله جل وعلا: " وإن كانوا بكلامهم دعاة إلى الله ولكنهم بأفعالهم قطاع طريق "

" و إن منكم لمنفرين " ؛ ولهذا عنف النبى ﷺ معاذًا ؛ خشية أن يقطع الطريق للحق، فالجماعة من الناس فى سبيل الله أنت إن نفرتهم ، فأنت تنفر عن سبيل الله ، فانتبه !

وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا: أى تبغونها معوجّة مائلة، فهم قومٌ يبغون الاعوجاج فى طريق الله جل وعلا ؛ حتى لا يسلكها الناس ، فكل من سلك الصراط المستقيم ، يجعلونه منحرفا عنها فبقدر الانحراف، يكون قربه منهم، ولذلك قال الله للنبى "وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ"، فلولا تثبيت الله، لحدث هذا الركون بالميل للظلمة بأى نوع من أنواع الركون؛ لأن الظلمة يحبون ذلك، فعندما نقرأ مثلًا فى مسألة الأعياد، نجد ابن تيمية، رحمه الله، يوضح أن الكفار فى بعض أعيادهم قد يبذلون أموالا لأهل التوحيد حتى يشاركوهم، فهو يشعر أنه منبوذ ويعلم ذلك.

وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ : إما بتكثير العدد أو كثّر أموالكم فأصبحتم أغنياء بعد الفقر.

– والتذكير بنعم الله أمر مهم، فهو أول إضاءة فى طريق اليقظة حينما يريد الإنسان أن يبنِ نفسه فهود عليه السلام قال لقومه " فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ "، وقال صالح لقومه أيضًا " فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ".. فذكر النعم يفيق القلب ، فحين تُعدِّد نعم الله فهذا أول طريق الإفاقة واليقظة ؛ لتعلم أن الله يعطيك ويمنعك، فتقترب منه سبحانه وتعالى، والنبى ﷺ كثيرا ما كان يقول " أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى "

– فالكلام يُعرض على القلب، ويخرج إقرار باللسان، فكيف تُقرّ كل يوم بنعم الله عليك ولا تحبه ؟! فستحبه لنعمة الكثيرة وتقترب منه، فمطالعة النعمة ومشاهدة عيب النفس، يُحدث الإنكسار الذى يُريك فضل الله عليك، فمن أكبر فضائله أنه أنعم علينا بالإسلام وبعده النعم المتوالية علينا ليل نهار.

وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ : العاقبة مآل الأمر، كيف أن أهل الفساد أهل الشرك والمعاصي كيف عاقبهم الله فدمرهم وأهلكهم ؟!!

(وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧))

وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ : أى جماعة صدقوه وآمنوا به وعملوا بما فيه.

وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا: أى لم يصدقوا بذلك.

فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا: أى فانتظروا أيها المكذبون ما يحكم الله بين الفريقين ما يتبين به المحق من المبطل ؛ لأن الحق سينتصر والباطل سيزول.

فاصبروا : فعل أمر ولكن خرج عن مخرجه ؛ لأن المقصود به ليس طلب الصبر، إنما المقصود به التهديد والوعيد لهم، وفيه وعد للمؤمنين.

وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ : فخير الحاكمين سيحكم لأهل الإيمان وينصرهم ويمحق أهل الباطل.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨))

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ : الملأ الكبراء والرؤساء، وُصِفوا بالاستكبار ؛ لأنهم عرفوا الحق، وأن شعيب عليه السلام معه الحق، ومع ذلك ردّوا الحق، فالاستكبار كما قال النبى ﷺ " بطر الحق وغمط الناس " فيعلم الحق ولا ينقاد له ويرده ، وغمط الناس : احتقارهم.

لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا: نفس اللهجة كما فعل قوم لوط " أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ "

لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا: من أرضنا، بلدنا، فهى نفس السياسة، سياسة الطرد والإخراج، باعتبار الأرض ملكا لهم، وكأن المؤمنون أتوا عالة عليهم، وكذلك قال ورقة للنبى ﷺ :"يا ليتنى فيها جزعا إذ يخرجك قومك، قال : أومخرجيَّ هم ؟ قال : لم يأتِ أحدٌ بمثل ما جِئتَ به إلا عُودِيَ ".

أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا: أى لترجعن إلى ديننا.

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ : قال لهم شعيب عليه السلام أولو كنا كارهين ؟ أى كارهين لها،لأننا نعلم أنها باطلا

(قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩))

قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا : قد اختلقنا على الله كذبا.

إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا: إن اعتقدنا ما أنتم عليه من شرك وكفر، بعدما سلمنا الله منه بفضله، والتنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع فى المكروه.

– ففى قصص الأنبياء نجد " فأنجيناه وأهله " " ونجيناه من الكرب العظيم " يدلنا على هذا التأويل، الإجماع على عصمة الأنبياء من الكفر، فهم معصمون من الكفر قبل وبعد البعثة فليس هناك نبى أشرك قبل أو بعد البعثة، ولم يرتكب منهم أحدا كبيرة قبل البعثة أو بعدها، فمن ناحية الإعتقاد، يقول الجرجانى فى كتابه شرح المواقف: " فقد أجمعت الأمة على عصمتهم من وقوع الكفر منهم قبل البعثة "، وحكى هذا الإجماع صاحب المواقف وقال شارحه ولا خلاف لأحد منهم بذلك.

– ويقول القاضى عياض فى الشفاء : " ولم ينقل أحدا من أهل الأخبار أن أحدًا نبىء واصطفى ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك " فعصمتهم من الكبائر والصغائر المشينة.

وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا: فتم تقديم المشيئة ؛ لأنه لا أحد يأمن على نفسه .

وفى هذا استسلام لمشيئة الله جل وعلا، فكل الأنبياء يخافون العاقبة مع علمهم بأن الله جل وعلا ناصرهم ومعينهم، لكنهم لا يأمنون، فأبوبكر كان يقول كيف آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماى فى الجنة، والإمام أحمد يقول نفس المعنى، الأنبياء أيضا كانوا كذلك، فشعيب يقول " وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا " ، وإبراهيم عليه السلام يقول " وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ "، إبراهيم الذى كسرها وأعلن حربها وهجر قومه وهُدّد بالرجم من أجل ذلك !! ، هل من الممكن أن يعبدها بعد ذلك ؟! فمن يأمن على نفسه؟!! ..

– لذلك قال إبراهيم التيمي : فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم ؟

– وكان النبى ﷺ كثيرا ما يدعو " يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك " فما أحوجنا لهذا الدعاء ! ومن الأدعية: ما رواه مسلم، أن النبى كان يدعو ويقول " اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى وأصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، وأصلح لى آخرتى التى إليها معادى، واجعل الحياة زيادة لى فى كل خير، واجعل الموت راحة لى من كل شر" فهو دعاء جامع مانع لكل خير فى الدنيا والآخرة.

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا : فعلم العاقبة لله جل وعلا ؛ لأنه المطلع على الأمور الغائبة وليس لنا فى علم الغيب شىء، وهو اعتراف من شعيب عليه السلام بالقصور فى ذلك العلم.

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا : أى اعتمدنا ، فالتوكل : هو أن تعتمد بقلبك على الله جل وعلا بجلب المنافع ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب ، فالتوكل اعتماد قلبى صادق على الله، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو من يعطى ويمنع، ويجلب لك النفع ويدفع عنك الضر، مع الأخذ بالأسباب.

" عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا " عند البلاغيين قاعدة تقول : " تقديم ما حقه التأخير ، يُفيد التخصيص " .

" فعلى الله " : جار ومجرور، حقه أن يُؤخر، فنقول : " توكلنا على الله "، ولكن هنا فى الآية قُصد أن يكون التوكل مقصورًا على الله جل وعلا ، فهو الذى يختص بهذه العبودية ، فالتوكل عبادة خالصة لله ، وليس هناك توكل على أحد .

* وأقسام التوكل عند العلماء :

١- التوكل الشركى وهو اعتماد بالقلب على غير الله ، على سبب أو على غيره.

٢- وهناك توكل يسمونه مجازا توكل وهو ليس توكل ، وهو الوكالة أى وكّل فلان أن يقوم ببعض مصالحه، فهذه وكالة، إنما التوكل عبادة قلبية مع الأخذ بالأسباب وكل الآيات واضحة فى ذلك :

" وتوكل على الحى الذى لا يموت " فالتوكل لا يكون على من يموت أو ليس بحي، فلا يصلح التوكل ولا صرفه له

رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ : افْتَحْ بمعنى احكم .

وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ : بمعنى وأنت خير الحاكمين .

الفتح يأتي فى القرآن على عدة معانٍ ، منها :

١- ضد الإغلاق ، فالمفتوح ضد المغلق، كما فى قوله تعالى (وفتحت أبوابها) أى كانت الأبواب مغلقة ففُتِحَت.

٢- ويأتى بمعنى القضاء والحكم، كما معنا هنا فى الآية " رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ " أى احكم وأقضى بيننا

٣- ويأتى بمعنى الإرسال كما فى قوله (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) وهنا بمعنى خرجوا وأرسلوا.

٤- ويأتى بمعنى النصر كما فى قوله (وفتحا قريب) أى ونصرا قريب.

• يرد هنا إشكال : فى قوله (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) وفى قول شعيب (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا) ... فهنا قد يستشكل على البعض ، هل كان شعيب فى ملة حتى يعود ؟!!

– نقول : هناك عدة تأويلات لهذه الآية :

١- التأويل الأول : أن يكون المقصود بقوله (أَوْ لَتَعُودُنَّ) هم قوم شعيب الذين آمنوا به .

و (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا) هنا شعيب يتحدث عن قومه، يعنى إن عاد قومه، فيقولون هذا ؛ من باب التغليب، فالمقصود أنهم غلّبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين إجراءً للكلام على حكم التغليب، فالمقصود (لَتَعُودُنَّ) لقومه المؤمنين، (إِنْ عُدْنَا) قومنا الذى عاد فلقد أصبحوا كالجماعة الواحدة فحكمهم كأنه واحد.

٢- التأويل الثانى : يقولون كلمة (لَتَعُودُنَّ) أى لتصيرُنّ من الصيرورة، أى لتصيرون كفارا مثلنا.

فالعرب تقول قد عاد إليَّ من فلان مكروه، أى: صار إليَّ منه مكروه، وكما قال الشاعر:

فإن تكن الأيام أحسن مدة :: إليَّ فقد عادت لهن ذنوب

فعادت أى صارت وجاءت، فلم يرد أنه كانت لهن ذنوب قبل الإحسان فمعنى لتعودون أى لتصيرن فى ملتنا

٣- التأويل الثالث: العود قد يطلق على الابتداء، فعاد بمعنى ابتدأ، (لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا) أى لتدخلن فى ملتنا، فإن عدنا أى إن دخلنا، واستدلوا بقول الشاعر: وعاد الرأس منى كالثغامى

أى بدأ الرأس فيه كالثغام ، أى : النبت الأبيض ، فالمعنى : بدأ شعره فى المشيب . وقالوا أن هذا الكلام جارٍ على ظنهم ، أنه كان فى ملتهم ؛ لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم، فلما لم ينكر عليهم قبل البعثة، ظنوا أنه موافق لهم على ما هم عليه .

- وقيل : أنه صبر عن رؤسائهم ؛ تلبيسا على الناس وإيهاما أنه كان على دينهم، وما صبر عنه شعيب كان على طريق المشاكلة لهم فى اللفظ ، وليس المقصود أنه كان على ملتهم .

٤- ومن التأويلات : " إن عدنا " أى ما خرج منه، وهو القرية، أى: إن عدنا فى القرية فخالطناكم، ولم نأمركم بالمعروف وننهاكم عن المنكر، فلقد اشترطوا على شعيب ومن آمن معه للعودة للقرية، أن يعودوا لملتهم، فرد شعيب أننا إن عدنا للقرية مرة أخرى على شرطكم، فقد افترينا على الله.

٥- ومن التأويل أيضا : العود إلى ترك الرسالة والإقرار بها، فليس يلزم العودة لملتهم، بل المقصود أن يسكت عنهم فلا يأمرهم ولا ينهاهم، فسكوت أهل الحق عن حقهم مكسب لأهل الباطل فالملة هى الديانة التى يُجمع على العمل بها فِرقة عظيمة والأصل فيها تكرار الأمر، ومنه الملل ؛ لأنه تكرار الشيء على النفس حتى تضجر منه، فالملة أمر متكرر يفعلونه كثيرا

(وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١))

- الرَّجْفَةُ : هى الزلزلة الشديدة .

- جَاثِمِينَ : أى منكبّين على ركبهم ووجوههم ، هلكى ، ميتين ، هامدين فى دارهم .

والجثوم أى برك على ركبته وعلى وجهه كهيئة الطائر ، والجثوم أصله للأرنب فأصبحوا هكذا هلكى وميتين عياذا بالله جل وعلا .

وردّ الله على قولهم " لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ " فقال لهم جل وعلا:

(الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢))

- الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا : أى كأن لم يقيموا بدارهم ولم يتمتعوا فيها أو كأن لم ينزلوا فيها كأنهم لم يكونوا موجودين فهذا يعنى استئصالهم بالمرة.

" فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ "

أى كيف أحزن – فالأسى هو أشد الحزن – فيقول كيف أحزن على قومٍ كافرين بالله ، مُصرّين على كفرهم . ...

وفى هذا دليل على أن الإنسان لا يحزن على هلاك الكفار فكما قال النبى ﷺ " إذا مات الفاجر استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب " . فكيف نحزن نحن عليه ؟!! " فلا تذهب نفسك عليهم حسرات " ، فهم فعلوا ذلك باختيارهم.

– ذكر الله جل وعلا هنا أن هلاك قوم شعيب كان بالرجفة، وفى آيات أخرى أُهلكوا بعذاب يوم الظلة، وفى آيات أخرى بالصيحة، فكان جزائهم من جنس عملهم .

١– " فأخذتهم الرجفة ": أى زهقت أرواحهم بالرجفة ، مثلما أرجفوا شعيب وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، زلزلوهم وعنفوا عليهم ؛ فعوقبوا بالرجفة.

٢– " فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يومٍ عظيم "

والعذاب أنهم أتتهم سحابة فيها شرر ونار ولهب فأظلتهم وعوقبوا بها؛ لأنهم قالوا:

" فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين"

٣– " وأخذت الذين ظلموا الصيحة " فأسكتتهم لما تهكموا على شعيب، وقالوا :

" أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ "

قالوا هذا من باب التهكم والاستهزاء، فأخذتهم الصيحة.

فالجزاء من جنس العمل وما ربك بظلام للعبيد فترى حكمته سبحانه فى هلاك الأمم.

– وبعد ذكر قصص الأنبياء وما وقع من نجاة المؤمنين وهلاك الكافرين، تبدأ السورة فى ذكر بعض التعميمات فيما مضى، فتأتى الآيات عامة بعد التفصيل فى القصص ؛ لتوضيح سنن الله التى لا تتبدل.

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤))

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ: أى من القرى، وسميت قرية؛ من الاجتماع، فيقال قريت الماء، أى: جمعته فى القربة، ولذلك سمى القرآن قرآنا ؛ من قرى بمعنى جمع فهو يجمع فى الصحف أو في الصدور.

مِّن نَّبِيٍّ: أرسله الله إليهم ليدعوهم فصدوا دعوته وكذبوه وكفروا بما جاء به.

الْبَأْسَاء: البؤس والفقر والحاجة. – الضَّرَّاء : أى المرض.

– يَضَّرَّعُونَ : ليتذللوا لله ويدعونه ويفتقرون إليه.

" ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(٩٥) "

– ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ: فأبدل الله مكان السيئة، والمقصود بها: البأساء والضراء والقحط والجدب والمرض والفقر، وكل ما يسوء الإنسان.

– الْحَسَنَةَ: وهى عكس السيئة، فالمقصود بها: الغنى، عكس الفقر، والصحة عكس المرض وهكذا، فليس المقصود بالسيئات هنا المعاصي، بل الأمور القدرية.

– حَتَّى عَفَوْا: العفو هنا بمعنى الكثرة والزيادة، أى كثرت أعدادهم، ونمت أموالهم، وزادت صحتهم، وجاءت بنفس المعنى فى سورة البقرة " وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ " أى الزائد عن الحاجة الأساسية.

وللعفو معنى آخر، وهو : المسامحة ، ولكن المقصود هنا فى الآية: الزائد.

فمن بدل حالهم هو الله جل وعلا، بعدما أصيبوا بالبأساء والضراء؛ ليتضرعوا ويرجعوا لله جل وعلا

– فيجب عند وقوع المصائب أن نبدأ بالتضرع ، فربما أيقظك الألم فى وقت قيام الليل ؛ لتُقبل على الله، فالإصابة بالبأساء والضراء من باب الإبتلاء لـ " نبلوكم بالخير والشر فتنة " فالبعض يظن أن الله يبدله لأنه على خير !

كما قال تعالى " وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ "

وقال سبحانه " وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا "

– وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء: فقالوا أُصبنا بالضراء والبأساء، فذهبت، وهكذا كان آبائنا، فنسبوا ذلك للعادة، وقالوا أصابت أهلنا من قبل، ولم يدركوا أن ما أصابهم من البلاء ؛ للإعتبار، وما أصابهم من نِعَم؛للاستدراج.

– فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٩٦))

– وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا: أى آمنوا بالله وصدقوا رسله واتقوا بامتثال أمره واجتناب نهيه، بتركهم المعاصي والكفر والشرك وجعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية.

– لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْض : بركات متعددة وليست بركة واحدة، ولم يقل لرزقناهم، بل بركات، فالبركة الخير الكثير، والمراد بالبركة الخير الكثير مع الاستمرار والدوام.

– كما يقال: بِركة الماء ، فيقصد بها أنها واسعة فيها كثير من الماء.

– والاستمرار واللزوم مأخوذة من برك الجمل، أى لزم محله.

فالبركة تعنى الثبات وقيل البركات أنواع الخير الكثيرة

– وذكر بعض المفسرين لها أنواع : فالقطر من السماء، ومن الأرض خروج النبات، ففى الحديث الحسن " لَيْسَ السَّنَةُ (أى الجدب) أَنْ لا تُمْطَرُوا ، وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلا تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا "

– وَلَكِن كَذَّبُواْ : " لو " يسميها العلماء حرف الامتناع ؛ إمتناع الجواب، لامتناع الشرط،

فالشرط هو " وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَوْا " والجواب هو " لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ " فامتنع الجواب، لا تفتح البركات، لأنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا.

وفى هذا دلالة على أن من أسباب الرزق، الإيمان والتقوى، بل هي من أعظم أسباب الرزق،

" وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ " .

* ومن كلام ابن تيمية – رحمه الله: "لو أن الإنسان اتقى الله لجعل له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا، حتى لو ضاقت عليه الجبال لجعل الله له من بينهن سبيلا، وقد وعد الله المتقي أن يرزقه من حيث لا يحتسب، ولم يحتج تقيٌ قط فإن احتاج ، فليراجع تقواه، فإن فيها خللا وليتقِ الله "

* ويقول أحد السلف: إنى لأعلم أثر معصيتى فى خلق زوجتى ودابتى.

– فكما قال النبى ﷺ " مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا " ، فالهم يأتى من علو سقف التوقع.

* ويقول ابن الجوزى : " فالصابر على الفقر كالصابر على المرض " .

– فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ : أى بسبب ما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي .

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩))

– أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا: أى هذه القرى المكذبة هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا.

– بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ : أى ليلا وهم نائمون ؛ لأن النوم وقت الغفلة والإستغراق.

– أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى: الضحى أول النهار بعد طلوع الشمس.

– وَهُمْ يَلْعَبُونَ: لاهون غافلون منشغلون فى دنياهم، وقت التجارة والغفلة.

" أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ "

فالله أعطاهم ومنحهم، وأبدلهم بالسيئة الحسنة، وأمهلهم، وأرسل إليهم رسلا، وأنزل إليهم كتبا، فهل بعد كل ذلك إذا كذّبوا الرسل، يأمنوا بأسه ونقمته وقدرته عليهم ؟!!

فالخاسرون سيخسروا أهلهم وأنفسهم بهلاكهم فى النار، أما الموفقون الصالحون فإنهم لا يأمنون مكر الله.

" أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠)"

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا: يهدي بمعنى يتبين، أى: أولم يتبين للذين استخلفوا فى الأرض بعد هلاك أهلها بسبب ذنوبهم.

أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ : أى أهلكناهم كما أهلكنا أسلافهم، إذا فعلوا مثلما فعلوا، وأتوا بالذنوب والمعاصى ؛ لأنها سنة، فإذا أتيتم بما يستحق العقاب، ستعاقبون فليس بين الله وبين أحدٍ نسبا.

وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ: ويختم الله على قلوبهم فلا ينتفعون بسماع موعظة، ولا يتذكرون بسماع ذكرى، فعدم السماع المقصود، هو عدم الإنتفاع به.

فالسمع فى القرآن يقصد بعدة معانى :

١ـ منه السمع الحاسة.

٢ـ ومنه سمع الإجابة ، كما نقول فى الصلاة سمع الله لمن حمده، أى أجاب الله من حمده فسمع هنا بمعنى أجاب، فلم يستمعوا أى لم يستجيبوا للحق فلذلك يطبع الله على قلوبهم، كما قال تعالى " فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ "

فالأبصار تعمى ولكن المقصود هنا الكلام فى الحق والباطل، فالمقصود أن العمى الحقيقى هو عمى القلب " إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ " فالشىء الغير منتفع به كأنه لم يكن " صمٌ بكمٌ عُمى " .

" وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل " فكان لديهم السمع والعقل، ولكن لم ينتفعوا به، فكأنه غير موجود.

فكما قال الشاعر : صُمٌ إذا سمعوا خيرا ذكرت به :: وإن ذكرت بشرا عندهم أذنوا

فإذا قلت الخير، كأن لم أقل، وإذا ذكرت بالشر، انتبهوا .

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١))

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا: أى من أخبارها

وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ : البينات هى الأدلة والبراهين الواضحة والحجج الدامغة .

فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ : بسبب تكذيبهم السابق، فما كان الله ليوفقهم للحق الذى كذبوه لأول وهلة، فليسوا محلا لتوفيق الله كى يؤمنوا،

وهنا تنبيه أنك لا ترد شيئا سمعته علّه يكون حقا، فتُبتلى بمثل هذ ، فلا تقبله بعد ذلك، فالمسألة تبدأ بشهوة وتنقلب شبهة اعتقادية.

كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ: لأنهم ردوا الحق فطبع الله على قلوبهم.

كما قال تعالى " بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ " فبسبب كفرهم طبع على قلوبهم، وقد علم الله أن هذه القلوب ليست محلا للهداية.

" وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)"

ومَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ: العهد هو الميثاق المؤكد.

مِّنْ : هنا تفيد الجنس، أي: ليس لهم أى عهد، فالميثاق الأول نقضوه ولا العهد الذى أتى الرسل إليهم به أبقوا عليه، فهم نُقّاض للعهود.

وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ: الفسق هو الخروج،

فاسقين: أى خارجين عن طاعة الله جل وعلا، فيقال: فسقت الثمرة، أى: خرجت من أكمامها،

والفسق فى القرآن:

فسق أكبر ، وفسق أصغر، والمقصود هنا: هو الفسق الأكبر، أي الخروج التام، والعياذ بالله.

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣))

هذه قصة موسى عليه السلام مع قومه الذى أرسل إليهم، وقصة موسي ذُكرت بإستفاضة؛ لأن أمته هي آخر الأمم قربًا بنا، والظروف قد تتفق ؛ لذلك ذكرت لنا ؛ لنتأسى بها، ولأن موسى عليه السلام قابَل أكبر طاغية عرفته الأرض وهو فرعون عليه لعنة الله.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى: أى أرسلنا من بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم، موسى عليه السلام.

والبعث هنا الشرعي وهو غير البعث الكونى الذي في قوله تعالى " ثم بعثناكم من بعد موتكم "، فهذا هو البعث الكونى .

بِآيَاتِنَا : المعجزات الواضحات البينات الدالة على صدقه.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ: أى قوم فرعون وهم السادة والأشراف الذين تمُلأ العين بهم، وكما ذكرنا أقرب مصطلح يليق بهم هو: النخبة.

فَظَلَمُواْ بِهَا: أى ما كان رد فعلهم إلا الجحود والكفر بهذه الآيات ؛ ظلما بها، أى وضعوها فى غير موضعها، فالآيات تأتى لتبين لك الحق والإستفادة من هذه الآيات، أما هم فقد وضعوها فى غير موضعها، واتخذوها موضع سخرية واستهزاء، وازدادوا تكذيبا على تكذيبهم.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ: فانظر أيها الرسول كيف كان مآل أمر هؤلاء المفسدين، الذين أفسدوا فى الأرض بالكفر والمعاصي، فالعاقبة : مآل الأمر وخاتمته ونهايته.

" وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤)"

أى مرسل من الله جل وعلا، وهو مالكهم وسيدهم، ومن بيده أمرهم سبحانه وتعالى.

" حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)"

حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ: أى جدير وحريص أن يقول الحق على الله جل وعلا فالرسل لا يملكون أن يقولوا كلمة واحدة من عند أنفسهم.

" إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ " ، " إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ "

ولذلك قال الله جل وعلا " وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ " فإن الأنبياء هم أعلم الناس بالله جل وعلا، وأخوف الناس منه جل وعلا، فلا يقولون قولا زائدًا على الله، ولا يدّعون شيئا لم يقُلْه الله جل وعلا.

* وفى قراءة أخرى " حَقِيقٌ عَلَىَّ " بالتشديد، أى: واجبٌ عليه.

قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ: أى بحجة واضحة على صدق ما جئتكم به.

فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أراد موسى أن يرسل بنى إسرائيل.

وسنعلم أن فرعون كان يستحى النساء للخدمة والاستعباد ويقتل الرجال والأولاد.

" قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦)"

أى: إن كنت صادقا فى دعواك، فبيّن لنا الحجة الواضحة.

" فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧)"

(إذا): يسمونها إذا الفجائية، أى أن الأمر حدث فجأة، فموسى لم يفعل كالسحرة بستر عصاه وراء حجاب ثم يخرجها لهم، بل فجأة تحولت العصاة لثعبان هنا فى مقام المناظرة وإظهار الحجة والبينة.

والثعبان: هو الحية الكبيرة ، وبعض المفسرين يذكرون فيها أشياء – الله أعلم بصحتها – فبعضهم يذكر أنها إذا فتحت فاها فكان طرفها الأعلى عند أعلى القصر، وقيل: أنها كانت فى الإسكندرية وذيلها بالقاهرة، وهذه أمور لا نصدقها ولا نكذبها، وقالوا أيضا: أنهم جاءوا بثلاثمائة بعير بهذه الحبال والعصا التى ستتحول، فالحية التى تلقم كل ذلك كيف تكون مساحتها ؟!! فالمهم أنه ثعبان عظيم مبين، تحول لثعبان فعلا حقيقى، وليس من باب التخييل عليهم، فهذه أول الآيات، ولم يخف موسى ؛ لأنه قد تدرب،

ولذلك من معانى الرب أنه المُرَبِى الذى يدرّج الإنسان فى المراتب ؛ ليصل للكمال،

فتربية موسى مرت بثلاث مراحل وأدت لمرحلة رابعة هى النتيجة والثمرة:

١ـ المرحلة الأولى : هى مرحلة الإستقرار النفسى، وهذه كانت منذ لقى الله جل وعلا وأمره بإلقاء عصاه " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ * قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ "

خذها : أى خذها وهى حية، فالحية وإن كانت ثعبان صغير، إلا أن بعض أهل العلم قال: أنها من النوع السام جدا ، وهذا ما جعله يهرب، فهو أُمِر أن يأخذ العصا وهى حية، وإن أخذها ستعود عصا، فهى ليست لإهلاكك بل لتربيتك، فتوالى الصدمات يُقوّي ! فهنا أمر بألا يخاف؛ لأنه فى الآية الأخرى " وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ "

فأنت مرسلٌ فاستعلي بذلك على المصاعب، لذا عندما تأتينا المصائب، لابد أن يُذكّر الإنسان نفسه بإيمانه؛ ليتخطى تلك المصاعب، فلما أخذها قلَّ الخوف عنده، فمما يعين على الثبات استشعار معية الله، ثم أمر موسى بالذهاب إلى فرعون فقال موسى " رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ "

٢ـ إذن المرحلة الثانية : هي خوف من الطاغية ، والحل أن تعلم أنك على الحق " قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ"، ومن لازم ذلك معية الله بتأيده ونصره، فيبدأ الخوف بالتلاشي.

٣ـ وتبدأ المرحلة الثالثة: وهي إعلامه ببطلان ما عليه الخصم ، فاعرف من أنت، وثق بالله جل وعلا، وثق بمنهجك – ففى أول الأمر كان خائفا فولى هاربا ولم يعقب، ثم أصبح هناك دعما له بالمعية وأنه على الحق، والثالثة بيّن له بطلان ما عليه الخصم ؛ ولهذا لما رأى ما فعلوه مَرّ عليه الخوف كهاجس، رغم أنه هاله إلا أنه علم أنه باطل " وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ " فلن يُحصّلوا مطلوبهم، ولن يفروا مما يخافون، فقد علم موسى الحق الذى عليه وثبت، وعلم أن خصمه على الباطل.

٤ـ المرحلة الرابعة: هى النتيجة والثمرة، لما ترائى الجمعان قال أصحاب موسى " إنّا لَمُدرَكُون"، " قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ " ، فاستشعر الفرق ما بين " وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ " وبين "كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ "

– فالفرق الكبير حدث بالتربية " وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي"

ولذلك من علاجات الأطباء النفسيون فى مسألة الرهاب الخوف (المواجهة) أن تضع نفسك فى الموقف المخيف، فتبرأ ، لذا يقولون : كثرة المساس تُميت الإحساس، فالمبالغة فى الإحساس تقل.

" وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨)"

نزع يده: أى أخرج يده، كما قال الله " وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ "

بيضاء: أى منيرة لا مرض فيها.

" قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩)"

هنا ظهر الملأ يُهيّجون فرعون، والذي يظهر أنه كلام الملأ، وقد يكون كلام فرعون، كما قال تعالى في غير هذا الموضع " قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ "، فكأن فرعون وملأه تناقلوا القول مقتنعين به.

" يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)"

أراد أن يهيّجهم على موسى عليه السلام، كأنه يقول هل تعلمون لماذا جاءكم بهذه الدعوة الجديدة؟ ليخرجكم ويملك بني إسرائيل مكانكم، وهذا من أشد الدواعى لترك الديانة، المحافظة على الرياسة والمال.

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ: فبما تُشيروا عليّ من الرأي؟ وهنا كان قد حدث لفرعون انهزام نفسيّ.

وقيل : أنه من كلام الملأ له على طريقة الحديث مع الطغاة والجبارين بلهجة تعظيم له.

" قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢)"

أَرْسِلْ : من يحشر أى يجمع لك الناس.

فِي الْمَدَائِنِ: مدائن مصر ، وبعض علماء التفسير يقولون مدائن الصعيد.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ : أى عنده علم بالسحر ، قوى فى صناعته.

" وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣)"

هل لنا مكافأة إن غلبنا موسى، وانتصرنا عليه بهذا السحر؟، فأجابهم فرعون، وقال:

" نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)"

قال نعم: أى لكم مكافأة ، وليس ذلك فحسب، بل وستكونون من المقربين بالمناصب، فهم أتوا يريدون الدنيا، فوعدهم الدنيا كلها، من المناصب العالية والمكافآت العظيمة.

" قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥)"

هذا تخيير وأنهم أتوا بثقة، وبعض أهل التفسير قالوا: أنها تأدبا معه، وأرى أن هذا فيه بعد ؛ لأنهم قالوا بعدها " فبعزة فرعون "، فهم واثقون فى نصرهم حتى أقسموا بعزته، وهو ليس بعزيز، فالأقرب أنهم قالوا ذلك على سبيل الثقة بالنصر؛ كبرًا وإظهار للجلادة.

" قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦)"

قَالَ أَلْقُواْ: على سبيل المشاكلة أنه واثق لا يبالى بهم ؛ استحقارًا لشأنهم ؛ لأن معه التأييد الإلهى.

سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ: فالسحر وقع على أنهم خيّلوا لهم، فالعين لم تعد صحيحة الإدراك، فترى الشىء على غير حقيقته، كما فى قصة الغرانيق أدخل الشيطان بعض الكلمات فى كلام الوحى كلام الرسول صل الله عليه وسلم فسمعوه كاملا فسجدوا معه.

"إن الشيطان ينزغ " فقد يختلف اثنان فيقول أحدهما للآخر: أنت قلت ذلك وهو لم يقل، ولكنه سمعها بسبب إلقاء الشيطان ، فرأوا الحبال والعصيّ تتحرك كأنها ثعابين، و إن كانت ليست كذلك.

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ : أى أرعبوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر.

وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ : سحر عظيم عند من رأه سحر تَخْييلى، فهو سحر عظيم فى أعين الناظرين.

" وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧)"

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ: أى إرمها ، فرماها موسى عليه السلام.

فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ : فإذا الحية تلقف، أي: تبتلع عصيهم وحبالهم، ويقال تلقف، أي : تلقم وتلهم (بمعنى واحد)، أي: الابتلاع فى سرعة.

والإفك : هو أشد الكذب، فهى كما هى لكنها مخيّلة فى أعين الناظرين فقط.

" فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨)"

فَوَقَعَ الْحَقُّ : أى ظهر وثبت فتبيّن صدق موسى عليه السلام.

وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ : فتبيّن بطلان ما صنعه هؤلاء السحرة.

" فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩)"

فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ : أى هُزموا وانقلبوا صاغرين ، وانتصر موسى عليه السلام فى هذا المشهد وهذه الواقعة.

وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ : أى رجعوا أذلاء مقهورين مغلوبين.

" وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠)"

فلما عاين السحرة هذا المشهد، وهم علماء بالسحر يعلمون حدوده، فعلموا أن ما جاء به موسى، ليس داخلا فى هذا الأمر، بل هو حق لا باطل، كما يخيلون هم للناس، فما كان منهم إلا أن خَرّوا سجدا لله جل وعلا، لما رأوا هذه الآيات، وفى هذا دليل على أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، ولم يوجد مانع يمنعه من الظهور، ظهر على الجوارح مباشرة، فالقلب عامر بالإيمان.

" قَالُواْ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١)"

آمنوا برب العالمين .

" رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)"

فهو المستحق للعبادة دون غيره من الآلهه المزعومة

" قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣)"

قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ: يتوعدهم ويسألهم على سبيل التوعد والاستنكار لما أتوا به، وكأنه يزعم أن الإيمان يحتاج لموافقة.

إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا : عاد لمناورة السياسة، واللعب على أعصاب الجماهير، سيطردوكم ولن يكون لكم مكان فى هذه الدولة، ويعلن أن هذا حيلة ومكيدة ومكر مدبر ؛ لخدعة الناس وهى اتفاق موسى مع هؤلاء، رغم أن فرعون هو من أتى بهم !

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ : ما يحل بكم من العقاب والنكال.

" لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤)"

لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ : بأن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، واليد اليسرى مع الرجل اليمنى، وهو من أشد أنواع النكال فيفقد الإنسان توازنه.

والتفسير الآخر الضعيف وهو: أى لمخالفتكم لى.

ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ: أى لأعلقنكم جميعا على جذوع النخل ؛ تنكيلا بكم، وترهيبا لكل من يشاهد.

ـ وهنا دليل على أن الظلمة إن عجزوا فى مقام الحجة والبيان، لجأوا للعنف، وهذا دليل نهايته فلم يعد لديه شىء آخر، فالفكر لا يُجابه إلا بالفكر فإن جابهه بالعنف ثبّته، وإن كان الفكر باطلا.

" قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥)"

رد السحرة بعد إيمانهم وبعدما توعدهم، لا نبالى بوعيدك، فإنا لربنا راجعون.

مُنقَلِبُونَ: أى راجعون إلى الله جل وعلا.

وفى آية أخرى قالوا " فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ" فهم علموا أنها حياة منقضية، وأنه هناك حياة أخرى والدنيا والآخرة مستمرة فيها الحياة، لكن لكل حياة شأن يعنيها، فالموت مفارقة الروح للجسد فالجسد يفنى، والروح لا تفنى، الروح باقية وحياة الروح لاتفنى، فاقضِ ما أنت قاض فى هذه الحياة الدنيا، فهناك حياة أخرى لا سيطرة لك عليها، وهى أطول وأبقى فإذا قضيت هذه الحياة ومُكّنت من القضاء علينا فيها، فلن تستطيع أن تقضِ علينا فى الآخرة.

– وفي وهذا دلالة على استمرار حياة الروح، فالروح لا تموت، ولكن الحياة قسمت لأقسام (حياة دنيا، وبرزخ، وآخرة) ، وحياة الروح مستمرة ولكن لكل حياة ما يناسبها من البدن.

" وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)"

وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا: أى ما تعيب وتنكر علينا وتكره منا، إلا إيماننا بآيات الله لما جاءت على يد موسى عليه السلام.

– أى ليس لنا عيب عندك، إلا أننا اتبعنا الحق، وهذا من أعلى المناقب للإنسان وأفضلها، اتباع الحق، وفرعون يعد هذا الكلام عيبا ويذمهم به كما فى قوله " وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ "

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا : والإفراغ هو الصب الكثير الذى يغمرهم ؛ لصعوبة الموقف ؛ لأنهم أمام أكبر طاغية، فيحتاجون لكثير من الصبر لمجابهة ما سيأتيهم به.

وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ : أى أمتنا على الإسلام منقادين لأمرك متبعين لرسولك، هنا دعوا بالثبات على الأمر، كما فى قول يوسف عليه السلام " تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "، أى إذا جاء موعد وفاتى توفنى مسلما.

" وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧)"

وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ : ظهر الكبراء هنا مرة أخرى محرضين لفرعون وهم أهل الإنتفاع دائما فكل ملك حوله مجموعة من المنتفعين ولذلك من الدعاء للسلاطين البطانة الصالحة لأنها هى الموجهه فهنا هى مهيجة لمصلحتها فبقاء فرعون بقاء لهم رغم علمهم أنه ليس على شيء.

أَتَذَر: أتترك موسى وقومه.

لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ: لينشروا فى الأرض الفساد، والفساد المقصود هنا هو: التفريق بين الوالد ووالده والرجل وزوجته بتشتيت الشمل وإيقاع الفُرقة.

وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ: فهذا يدل على أن فرعون كان يعبد الأصنام.

كما قال الحسن : "كان فرعون يَعبد الأصنام ، فكان يُعْبَدُ ويَعْبُدْ ".

وقال سليمان التيمى : "كان يعبد البقر ، فقيل أنه لما كان يرى البقر مارا يسجد له ، ويسجد الناس تبعا له "

وقال بعض أهل العلم : " أنه كانت له جمانة (قالب السلسة) بها صورة بقرة كان يسجد لها " .

– فالعبادة أمر فطرى فى النفس فالإنسان مفطور على أن يكون عبدا فإن لم يعبد الله عبد غيره.

قال سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ : أى أبناء بنى إسرائيل الذكور.

وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ : أى نستبقيهم للخدمة ، فاستعمال النساء من العدو فى الخدمة، إذلال، ونوع من العذاب ؛ لأن الآيات الأخرى أتت عن العذاب "يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ "، فاستحياء النساء للخدمة من العذاب، فموت المرأة حينها، أهون من وقوعها أسيرة فى يد العدو يفعل بها ما شاء.

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ: مستعلون عليهم بالقهر والغلبة والسلطان.

فقال موسى لقومه :

" اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨)"

فى الآية السابقة قال " سَنُقَتِّلُ " ولكن لم يقل سأقتل موسى رغم أنهم قالوا " أَتَذَرُ مُوسَى "

فالمتوقع أن يقول: سأقتل موسى ؛ لكنه مُلأ رعبا منه، كما قال سعيد بن جبير : "كان فرعون قد ملأ من موسى رعبا ، فكان إذا رأه بال كما يبول الحمار "، وسبب هذا الخوف كما قال تعالى " سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ" .

فأنت على المنهج الحق ، وكلما التزمت المنهج الحق، أُلقى الرعب فى قلب خصمك وكلما ابتعدت عن المنهج الحق، استخف بك العدو ونُزع الرعب من قلبه . والدليل: حديث أبى داود حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال " ولينزعنَّ الله مِن صدور عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوَهَن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوَهْن؟ قال: حبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت".

فالله لم يتركنا بل نحن من تركنا شرعه فاستخفّ العدو بنا، وعند البخارى قال النبى " وجُعل الصَّغار والذلة على من خالف أمري "، فبمقدار المخالفة يقع الذل والصغار.

اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ : الإستعانة بالله جل وعلا وطلب العون من الله وحده فى دفع الضر وجلب النفع والإستعانة باليقين القلبى، أن المعين القادر هو الله، وما شاء الله كان وإن لم يشاؤه الناس سيكون طالما أراده الله، فالإستعانة ثقة بالله أنه سيحقق لك حاجتك.

وَاصْبِرُواْ : الصبر رأس العبادة القلبية، فالصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على الأقدار المؤلمة، والعلم بأن النصر مع الصبر.

إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ : اصبروا إن الأرض ملك لله ليست ملك لفرعون ولا غيره.

يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ : فبالإستعانة بالله والصبر بكل أنواعه ودرجاته والعبادة الخالصة لله جل وعلا فالأرض يورثها الله لعباده.

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ : فهذا مآل الأمر، التمكين لعباده المتقين . فلابد من إخلاص العبادة لله على كل مستويات العبودية قولا وفعلا وقلبا، وأن نكون من أهل التقوى، فالنصر والتمكين لهم، والخلل فى واحدة ، تؤدى للهزيمة ولتأخير النصر .

" قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)"

قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا: ابتلينا بهذه البلاءات الكثيرة من تقتيل الأبناء وإستحياء النساء وإذلالنا وإستعبادنا من قبل أن تأتينا يا موسى ومن بعدما جئتنا.

قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ : فقال لهم ناصحا ومبشرا وموعدا بوعد الله الصادق ، فمن يُهلِك العدو هو الله

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ: فالمستخلِف هو الله.

تَعْمَلُونَ: حتى فى مقام الإستخلاف ، فليس لفضلك عند الله ، ولا استحقاقك لهذا الأمر ، ولكنها صورة أخرى من صور الإبتلاء ؛ لينظر الله جلا وعلا أتكفرون أم تشكرون ؟!

فالناس يظنون عندما يصلوا لمرحلة التمكين، أنه يمكنهم التراخى ، فيتناسوا العبادة والتقوى ، ويكون لهم منطلقات أخرى ، حتى تقع الهزائم السريعة ، فسنين التمكين قصيرة.

ولذلك قال الله"الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ" فليس التمكين للشعور بالقيادة وليس دليل على أنهم ذوا علم ورؤيا وتركوا التعبد ولكن لينظر كيف تعملون .

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠))

وَلَقَدْ أَخَذْنَا : أي عاقبنا .

بِالسِّنِينَ : أي بالجدب و القحط و هو إبتلاء من الله ، و هو من مخالفة منهج الله تعالى ، فالأمور تضيق على الخلق لعلهم يرجعون إلى الله و يتعظون .

السنة : لا يشترط أن لا يكون فيها مطر ، فقد يوجد الماء و لكن لا ينبت الزرع ، كما في حديث : (« لَيْسَتِ السَّنَةُ بِأَنْ لاَ تُمْطَرُوا وَلَكِنِ السَّنَةُ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلاَ تُنْبِتُ الأَرْضُ شَيْئًا ».رواه مسلم.

فحين لا تُنبت الأرض لن يكون عناك نبات و لن تعيش الحيوانات ، فيتضرر الإنسان بنقص النبات و الحيوان .

وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ : عوقبوا بأن الثمرات الخارجة تكون قليلة .

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ : لعلهم يتعظون و يتذكروا ، و يعلموا أنه عقاب من الله على كفرهم فيتوبوا ، فالبيئة من حولهم مهيئة للرخاء ، من أرض خصبة لنهر النيل ، و لكن مع ذلك لم تخرج الثمار ، فلعلهم يَتفكروا ، فيتساءلوا عن السبب ، فيعرفوا أن اللوم عليهم بسبب كفرهم.

(فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٣١))

الْحَسَنَةُ : بمعنى الخصب و النماء .

قَالُواْ لَنَا هَذِهِ : أعطيناها بإستحقاق لنا ، أي أننا نستحقها لأننا عالمون بالزراعة ، (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) .

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ : بمعنى الجدب و القحط و الأمراض . يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ : يتشاءموا بموسى و من معه ، ما يحدث لنا بسببكم ، أنتم شر لنا ، و هذا دأب أهل الكفر يظنون أن أهل الإيمان سبب كل شر يقع لهم . أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ : أي شؤمكم ملازم لكم بسبب كفركم و معصيتكم .

ـ و لقد نُهينا عن التشاؤم و التطير ، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (الطيرة شرك ، الطيرة شرك) .

و علينا دفعها : ١ـ بالقول : (اللهم لا خير إلا خيرك ، و لا طير إلا طيرك ، و لا إله غيرك)

٢ـ بالفعل : بالإعتماد على الله و حسن التوكل عليه و أن لا يصدنا هذا عن فعل الأمر ، ففي حديث معاوية بن الحكم السلمى قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي حَدِيثُ عَهْدٍ بِالْجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ جَاءَ الإِسْلامُ، وَإِنَّ مِنَّا رِجَالا يَأْتُونَ الْكُهَّانَ، قَالَ: " فَلا تَأْتِهِمْ " . قَالَ : وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ ؟ قَالَ : " ذَلِكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلا يَصُدَّنَّهُمْ " ، فلا تصدنا الطيرة عن الفعل .

و المتشائمون يتشاءمون بأمور لا تدعو لذلك ، مثل التشاؤم من رقم (١٣) ، أو يقولون الجمعة فيها ساعة نحس ، بالرغم من أنها فيها ساعة إجابة ، فيتوهمون في صدورهم أشياء غير حقيقية .

و قُصر لفظ الطيرة بعد ذلك على التشاؤم فقط ، و كلمة طار لغةً : تعنى الحظ .

قد يحدث إشكال في قول النبى صلى الله عليه و سلم : ("إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ")

للعلماء فيها تأويلان :

الأول : الشؤم هنا بمعنى الضيق ، فالمرأة غير ولود ، و الدار ضيقة ، و الدابة تحرن و شموس .

الثانى : و هو الأقرب : أن الله قد يقدر بعض الأقدار المؤلمة بمصاحبة هذه الأشياء ، فمثلا :

ـ تشترى سيارة و كلما تخرج بها تحدث مشكلة ، فهل السيارة السبب ؟ لا ، فهذه هي الطيرة و هذا لم يُثبته الشرع و لم يدل عليه القدر ، بل تقع هذه الأقدار المؤلمة بمصاحبة هذه السيارة ، و الحل بيعها .

ـ كذلك بعض الدور ، يشترى الدار فتقع له فيها إبتلاءات كثيرة ، فهذا ليس منها بل قدر الله أن تقع هذه الإبتلاءات فيها ، و الحل تركها .

ـ و كذلك المرأة ، فالأقدار من الله ، و الشريعة حثت على حسن المصاحبة و تخير ما يصاحب ، حتى لا يقع له الضرر معها ، و تصور أنها السبب طيرة ، و إنما الأقدار تقع بمصاحبة هذه الأمور .

و كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : «فر من المجذوم فرارك من الأسد» ، فالمرض بقدر الله ، و الفرار من المجذوم من الأخذ بالأسباب .

أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ : ما يصيبهم إنما بتقدير الله لهم و عليهم ، و لكنهم لا يعلمون أن موسى لا دخل له في أقدارهم ، لأن النافع و الضار هو الله .

(وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢))

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ : فقالوا له ذلك على جهة العناد على الرغم من العلامات الواضحة البينة .

مَهْمَا : تدل على تكرار الشرط لجواب شرطه .

مِن آيَةٍ : من هنا تفيد العموم ، فهى بيانية تنسحب على كل الآيات ، و تدل على عموم الآيات ، فمهما تأتينا من آيات لن نؤمن لك .

لِّتَسْحَرَنَا بِهَا : فتصيبنا بالسحر لتصرفنا عما نحن فيه فنتبعك .

فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ : فلن نصدقك مهما أتيتنا ، و هذا قمة العناد .

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣))

أتت الآيات ، تلى الآيات .

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ : أي من باب العقوبة لهم لكفرهم و عنادهم.

الطُّوفَانَ : قيل الماء الكثير الذى يُغرق ، وقيل ما كان مَهلكا ، كل شيء يُسمى طوفان ، سواء كان سيل ، أو ما يطيف بهم فيهلكهم ، كما في قوله تعالى : (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ.) ،

أغرق الطوفان زروعهم و ثمارهم ، و قيل أغرق بيوت قوم فرعون ، فكان الفرعونى في بيته يغرق ماءًا و بيت من هو من قوم موسى بجانبه ليس به ماء.

و لكنهم كانوا يعاندون رغم الآيات و لا يعتبرون .

قَوْمًا مُّجْرِمِينَ : أي مرتكبون للمعاصى لا يهتدون للحق.

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤))

أتى الطوفان على الزروع ليفسدها، فلما دعى موسى موسى رُفع الطوفان وانتفع النبات بالماء، وأنبت وأخرج ثمره، ووُجد المحصول، فلما اطمأنوا على زرعهم رفضوا الإيمان بموسى عليه السلام، فأرسل الله عليهم الجراد ليأكل محاصيلهم، فما ترك لهم إلا القليل، حتى الخشب في سقف البيوت والأبواب والنوافذ، فرجعوا لموسى يطلبون الدعاء ، فدعى لهم لأنه حريص على هدايتهم، فرفع عقوبة الجراد، و كان هناك بقية من الثمار فخزنوها، و عادوا لرفض الإيمان.

ـ فأرسل عليهم القمل و قد قيل أنها تشبه السوس فتخرج مما خزنوه فتأكله، و قيل هي دابة بأجسادهم و بعيرهم، فتمص دماءهم فيتضرروا و يطلبوا الدعاء من موسى، فيدعوا لهم ، فتنكشف الغمة، فيطلب إرسال بنى إسرائيل فيرفضوا.

ـ فأرسل عليهم الضفادع ، فسمع فرعون ضفدع ينق، فقال أحد جلسائه: ويلٌ لك من هذا، فقال فرعون: و ما يغنى هذا ؟!، فأصبحوا و ما ترك الضفدع شيئا إلا دخله حتى القدور، و إمتلأت التنانير بهم، حتى إذا تكلم أحدهم دخل الضفدع في فمه، فتضرروا فطلبوا من موسى أن يدعو لهم، فانكشفت الآية.

ـ ثم جاءت الآية الأخيرة و هي الدم ، فتحول النهر لدم، حتى أن أحدهم ليرفع كوب الماء لفمه فينزل دما، و حتى إذا سقاه الإسرائيلي ماء، ينزل دما، و برغم كل هذا ظل العناد مستمرا.

ـ و المتابع لسياق السورة و الآيات، يرى أنه قد أُفتتحت السورة بقصة إبليس و كان من المستكبرين، و كأن السورة تحكى قصص المستكبرين و نهايتهم ، فيجمع هؤلاء الزمرة التشاؤم والإستكبار والعناد، فالآيات أتت كعقوبة لهم ليتذكروا لا للإهلاك، لأن موسى عليه السلام كان يدعو لهم فتنكشف الغمة.

الرِّجْزُ : العذاب بهذه الأمور ، و قيل طاعون مات به منهم سبعين ألفا.

بِمَا عَهِدَ عِندَكَ : بما إختصك به من النبوة و بما عهد إليك من رفع العذاب بالتوبة، أن يرفع عنا ما أصابنا من العذاب، و قيل: بما استودعك من العلم و اختصك به، و قيل: أنها قسم أي بعهده عندك إلا ما دعوت لنا، و تعتبر إقرار ضمنى لأنه يعلم عن الله، فكأن هناك صلة كبيرة بينه و بين الله.

لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ : لنصدقن بك . وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ : لنرسلن معك بنى إسرائيل ، لأنهم كانوا يستعبدونهم.

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥))

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ : أي رفعنا عنهم العذاب لمدة معلومة ، و هي أجلهم الذى قدره الله لهم قبل أن يغرقوا.

إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ : النكث : النقض ، أي نقض العهد الذى أخذوه على أنفسهم (لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) و أصروا على كفرهم ، و امتنعوا عن إرسال بنى إسرائيل.

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦))

اليم : البحر ، و قد كان فرعون يعتز بالماء فقال : (أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي) فغرق به .

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا : كذبوا بالآيات التي انتقمنا بها منهم ، فلم يستجيبوا لها ، و لم يؤمنوا بها ، و كانوا عنها غافلين.

ـ الباء هنا سببية : فالإغراق كان بسبب تكذيبهم ، أي انتقمنا منهم و أغرقناهم لتكذيبهم بالآيات .

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ (١٣٧))

الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ : بنى إسرائيل .

الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا : قيل بلاد الشام ، و قيل بلاد الشام و مصر ، فحلت البركة ، و هي الخير الكثير مع اللزوم و الإستمرار ، و البركة بإخراج الثمار و الزروع على أكمل ما يكون.(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ)

بِمَا صَبَرُواْ : صبرهم على إيذاء فرعون ، و صبرهم عن معصية الله جل و علا .

يَعْرِشُونَ : يبنون بناء القصور .

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨))

جَاوَزْنَا : عبروا البحر و لازالت أرجلهم مبللة ، و رأوا غرق فرعون فقد رُفع على صخرة ليروه عندما غرق للإيقان بهلاكه .

يَعْكُفُونَ : الإقامة و المكث في المكان . و العكوف إما على :

١ـ الطاعة : (و أنتم عاكفون في المساجد) : و العكوف في المسجد هو ملازمة المسجد للطاعة ، و هو عبادة من أشرف العبادات ، و قد واظب عليه النبى صلى الله عليه و سلم حتى مات ، و أمر الله به نبيين منهم خليل الله إبراهيم (أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ) ، لتطهير المكان الذى يعكف فيه الناس فهى عبادة عظيمة .

٢ـ المعصية : (مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) : العكوف على المعصية ، فهم ملازمون لها يعبدونها ، إما للذبح و النذر و التقرب لها ، أو التبرك بها .

كحديث ذات أنواط (كان للكفار سدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط) فالمقصود الإقامة عندها للتبرك بها ، فالإقامة عندها عبادة .

إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ : تجهاون ما يجب لله من تعظيم و توحيد ، و ما لا يليق به من شرك و عبادة لغيره .

(إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٣٩))

إِنَّ هَؤُلاء : أي العاكفون على الأصنام .

مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ : أي مهلك ما فيه من عبادة غير الله ، باطل لا قيمة له .

(قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠))

أَبْغِيكُمْ : أي أطلب لكم إله تعبدونه ، و هو فضلكم على العالمين

الْعَالَمِينَ : أي أهل زمانكم ، و هو تفضيل زمانى ، على زمانكم فقط .

(وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١))

يعدد الله نعمه عليهم و يذكرهم بها .

يَسُومُونَكُمْ : يذيقونكم سوء العذاب بقتل الذكور و إستحياء النساء .

بَلاء : البلاء له عدة معانى في القرآن منها : (الإختبار ، و منها النعمة ، و منها العقوبة) ، و المقصود هنا إختبار من الله لكم بما أنعم عليكم ، ليقتضى الشكر ، و قد يُقصد بها النعمة و الفضل و هي أول الآية (وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم) فإسم الإشارة (ذلكم) يرجع لأول الآية .

ـ أما لو قلنا أن المقصود العذاب و الشدة ، فيكون راجعا لآخر الآية (يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء) ، و قد تأتى الكلمة بمعنى واحد فقط في الآيات .

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢))

وعد الله موسى عليه السلام بمناجاته .

فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً : يقول أهل التفسير ، ليدفع توهم متوهم أن العشرة من الثلاثين فأتت الآية للتوضيح .

و قيل : العشر ، هي العشر من ذي الحجة التي وعد الله فيها موسى عليه السلام .

اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي : أي كن خليفة في قومى ، و أصلح فيهم بالعدل و الحكمة .

وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ : لا تسلك طريق المفسدين بالمعاصى ، فتعصى الله معهم و لا تعينهم ، و فُسر الفساد بالمعصية لأن الأنبياء للصلاح و عكسه الفساد ، فإن لم يكن مصلحا (بفعل الواجب و ترك المحرم) يكون مفسدا ، و دل على أن للمفسدين سبيل ، فيجب إستبانة الطريق .

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣))

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ : الموعد المحدد من الله له ، أي أن الله كلمه لما فيه صالحه و بنى إسرائيل .

كلم : فعل ماضى و الهاء ضمير متصل مبنى على الضم في محل نصب مفعول به .

ربه : الرب فاعل مرفوع بالضمة و الهاء ضمير متصل مبنى على الضم في محل جر مضاف إليه .

كَلَمَهُ : الهاء عائدة على موسى عليه السلام ، لأن البعض يقول في (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) أن موسى هو من تكلم .

قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ : لما رأى موسى من تقريب الله له ، سأله أن ينظر إليه .

قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي : أي في هذه الحياة الدنيا لعدم قدرتك على ذلك ، و لكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى .

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا : دكًا بمعنى مستويا ، (دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) أي أصبحت مستوية .

وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا : خر : بمعنى سقط .

صَعِقًا : أي سقط مغشيا عليه ، و لم تأت هنا بمعنى الموت – رغم أنها تأتى بمعنى الموت كما في قوله تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ)

لماذا لم نقل أن الصعق لموسى عليه السلام كان موتا و أنه أحياه الله ؟

لأن الله قال بعدها (فَلَمَّا أَفَاقَ) و الإفاقة لا تكون من الموت ، فلم يقل الله فلما بعثه أو أحياه .

فلما أفاق قال : سبحانك : أنزهك يا رب ، تنزيه عن كل ما لا يليق بك .

تُبْتُ إِلَيْكَ : أي تبت إليك من سؤالك رؤيتك في الدنيا .

و أنا أول المؤمنين : أي من قوم بنى إسرائيل ، و هذا إختيار ابن جرير .

ـ و قد ذهب أهل التعطيل في باب رؤية الله تعالى إلى إنكار وقوعها ، و استدلوا بقول الله لموسى (لن ترانى)

و الصحيح أن المقصود هو عدم الرؤية في الدنيا ، و أما الآخرة فثابت فيها الرؤية ، و قد ظنوا أن (لن) تفيد التأبيد في النفى ، و هذا غير صحيح فهى للنفى الحاضر ، و المستقبل قد يتغير و لا دليل على هذه الدعوة .

ـ ففى قوله الله تعالى (و لن يتمنوه أبدًا) أي الموت ، رغم قولهم في الآخرة (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ) ، ففي الأولى يُقصد بها الدنيا فهم أحرص الناس على الحياة ، إنما في المستقبل فالأمر تغير في الآخرة .

ـ كذلك في (فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) لو كانت للتأبيد لما تقيد نفيها باليوم ، و لكان ذكر الغاية ممتنع ، و لقد جاء ذكر الغاية معها .

ـ (لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ) فلو كانت للتأبيد ما ذُكرت الغاية ، حتى يأتي موسى .
و في ألفية ابن مالك (فمن رأى النفي في لن مؤبدا ..... فقوله الضد و سواه فعددا)
أي ضد قوله فهو غير صحيح و الحق العكس .

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤))

إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ : أي إخترتك و فضلتك .
بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي : أي بإرسالى لك ، و بكلامى أي بتكليم الله جل و علا له بدون واسطة .
فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ : فخذ ما أعطيتك .
وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ : و أشكر الله بعملك نظير ما أعطاك من هذه النعم ، و لذلك أمره بالشكر لأنه عنوان المزيد (و لئن شكرتم لأزيدنكم) ، و السلف كانوا يقولون (النعمة وحشية فأشكلوها بالشكر) ، و النعمة (إذا شُكرت قرت و إذا نُكرت فرت) ، أي إذا شُكرت لازمت و بقيت ، و إذا نُكرت تفر من العبد و تزول .

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥))

الأَلْوَاحِ : قيل : المكتوب في الألواح هو التوراة، و قيل : الألواح أعطاها له الله قبل التوراة ، و سواء كانت الألواح أو التوراة فهى تعويض لموسى عن الرؤية التي منع منها في الدنيا.
وَكَتَبْنَا لَهُ : أي لموسى عليه السلام.
مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً : أي ما يحتاجون إليه و يصلح به حالهم في الدنيا .
وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ : أى تفصيلا للأحكام التي يحتاجون التفصيل فيها .
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ : فخذها بجد و إجتهاد و أعمل بها
وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا : و أمر قومك يأخذوا بما ورد فيها لأنه حسن و أجره عظيم .
دَارَ الْفَاسِقِينَ : قيل : المقصود بها جهنم ، أي ما يؤولون إليه في الآخرة و هي النار عياذا بالله جل و علا .
و قيل : أريكم عاقبة من خالف أمرى و خرج عن طاعتى فصار لهلاك و دمار أي مصارع الفاسقين فهى تهديد للمخالف و تحذير للموافق .
و قيل : و قيل المقصود بها بلاد الشام و فلسطين و القدس ، لأنها كانت في يد الجبابرة ، وظل بنى إسرائيل مع موسى أربعين سنة ثم فُتحت بعد ذلك مع (يوشع بن نون) ، فهى بمعنى سترون عاقبة هؤلاء الفسقة .
و قيل : المقصود دار فرعون و قومه أي المقصود مصر .

- و رغم أن كل منهم ورد فيهم نصوص أنهم مباركين و لكن لتعلم أن الأرض لا تقدس أحدا و أن الدار أحكامها متغيرة و ليست ثابتة ، بدليل أن مكة كانت دار كفر ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (لا هجرة بعد الفتح) لأنها صارت دار إسلام .

- و قد يستدل بعض العوام على فضل آحاد الناس بالموت في المدينة و الدفن في البقيع ، و هذا لا فضل فيه فالمنافقون بعضهم قد دُفن في البقيع أيضا ، متى يكون الفضل ؟ إذا مات على التوحيد و كان متبعا لسنة النبى صلى الله عليه و سلم ، لأنه بهذا الوصف تكون له شفاعة عند النبى صلى الله عليه و سلم ، و لذلك تمنى الصحابة و منهم عمر أن يموتوا في المدينة ، إذا بلا عمل صالح لا فضل للمكان و لن يؤثر فيك .

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦))

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ : أى عن فهمها ، و هذا معناه أنهم إذا صُرفوا عن عن الآيات أنهم يقعون في الجهل .

لماذا صُرفوا عن فهم الآيات ؟ أول صفة بأن يكون متكبرا ، متكبر عن هذه الآيات و يتكبر على عباد الله جل و علا ، و في الحديث الشريف (الكبر بطر الحق و غمط الناس) ، فرد الحق بلا دليل و إحتقار الناس هو الكبر ، فالمتكبر مصروف عن الفهم ، و التواضع من أسباب فهم كتاب الله ، ذِل نفسك لله لأن الفهم نعمة من الله .

بِغَيْرِ الْحَقِّ : هذا وصف حال لهم ، أي أن حالهم أنهم على غير الحق ، يتكبروا بغير الحق لأنهم جهلة ، أو يتكبروا بغير الحق لأن هذا حال كل متكبر ، و ليس معناه أن هناك تكبر بالحق ، فالكبر كله مذموم .

بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً : فالمتكبر على الحق مصروف عن الفهم ، فمهما إتضح لهم و ظهر طريق الرشد و الصلاح ، يُعرضون عنه و لا يتخذونه سبيلا ، و هذا هو الأمر الثانى للدفع عن فهم الآيات (الإعراض) ، فهو معرض غير مقبل على الحق غير قاصد له .

وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً: و إن يروا طريق الغواية و الضلال الذى يوصل لسخط الله جل وعلا يتخذوه سبيلا .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ : الذى دفعهم إلى إتخاذ طريق الغواية و ترك طريق الهداية ، أنهم كذبوا بالآيات الواضحة الدالة على صدق ما أتى به الرسل.

بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ : لا يتفكرون فيها و لا يتعظون بها.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤٧))

الكفر بالله و التكذيب بالآخرة و الكفر بالآيات ، من وقع في أحدها وقع في الأخرى ، فهم متلازمين ، و هم قد أنكروا الوعد و الوعيد في الآخرة ، و كذبوا بلقاء الله يوم القيامة و حسابهم على أعمالهم .

الآخِرَةِ : سميت بالآخرة لتأخرها عن الدنيا .

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ : معناها بطلت ، و الأعمال هنا معناها ثواب الأعمال ، أي أنهم لا ثواب لهم فيما عملوه من الأشياء التي يُثاب عليها المرء لماذا ؟ لأنهم كذبوا بآياتنا و لقاء الآخرة ، هم كفرة و من شروط قبول العمل و الجزاء عليه في الآخرة بالثواب الإيمان ، لأن العمل الصالح له ثلاثة شروط : (الإيمان بالله جل و علا – الإخلاص – المتابعة) .

هل حبطت أعمالهم بمجرد الشرك و الكفر ؟ هذا قاله بعض أهل العلم ، و هذا قول الحنفية .

أما قول جمهور أهل العلم : أن هذه الآية مقيدة بآية البقرة (وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، فقالوا أن حبوط العمل مقيدٌ بالكفر و الموت عليه ، أي أنه كفر و كذب و استمر على كفره إلى أن مات .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ : الجزاء يأتي بالخير و يأتي بالشر ، لأن هذا الجزاء شر .

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ (١٤٨))

موسى عليه السلام ذهب للقاء الله جل و علا فظهر في المشهد السامرى ، فهم عندما مروا قبلا على قوم يعبدون الأصنام و كانت عجول ، طلبوا ذلك من موسى فنهاهم ، فكانت نابتة السوء موجودة فاستغلها السامرى، فماذا فعل لهم ؟ إقترح عليهم إقتراح، ما المانع أن نصنع إلها !.

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا : إتخذوا عجل، أتى بالحلى، فأخذ هذا الحلى، و كان هو صائغا، فصنع لهم عجلا جسد، لا روح فيه، و بعض أهل التفسير يذهب إلى أنه حُول إلى عجلٍ حقيقى، و لكن الذى يظهر، أنه كان عجلا بوصفه بالجسدية، كان جسدا بلا روح، و هذا له خوار.

لَّهُ خُوَارٌ : الخوار هو صوت البقرة، فهو وضع جسد العجل في إتجاه معين من الهواء، فإذا دخل الهواء خرج بصوت يشبه صوت البقرة، قال تعالى : (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ).

الذى صنع لهم العجل السامرى، فلماذا قال تعالى : (قَوْمُ مُوسَى) ؟

قيل : لأنهم راضون، فكأنهم أجمعوا عليه كما في قوم صالح.

و قيل : السامرى، هو من صنع العجل، و هم اتخذوه إلهًا، أي أن الكلام به حذف، و اتخذ قوم موسى من بعده عجلا جسدا جعلوه لهم إلهًا عبدوه.

مِنْ حُلِيِّهِمْ : ظاهر الآية، أنه كان حليا لهم، مملوكا لهم، و لكن أكثر المفسرين على أنه كان حليا مستعارا، استعاروه، و العارية أخذ عين للإنتفاع به ثم رده، فكيف إن كانت عارية يقال من حليهم ؟

القول الأول : قيل من حليهم، لأن الإضافة تكون بأدنى ملابسة .

القول الثانى : قيل من حليهم، لأن الله جل و علا أورثهم ملك هذه الأمور، فهم صاروا مالكين لها .

و إستفاد أهل العلم من هذه الآية فائدتين فقهيتين :

الأولى : أن الإستيلاء على أموال الكفار، يوجب زوال ملكهم عنها .

الثانية : أن من حلف، أن لا يدخل دار فلانٍ، فدخل دارًا إستعارها حنث .

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ : الله جل و علا، يبين غباءهم، هذا العجل، الجسد الذى عبدوه، يخرج منه هذا الصوت، و لكنه ليس كلاما، فهو أدنى حالا منهم كبشر.

يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً : لا يستطيع أن يتكلم، لا يرشد، لا يبين، لا يدل على طريق.

اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ : أي اتخذوه إلها لهم، و كانوا ظالمين لأنفسهم في ذلك.

(وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ : أي ندموا.

وَرَأَوْا : هنا بمعنى، علموا.

قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ : أي ممن خسروا، أعمالهم، و أعمارهم.

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠))

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ : موسى عليه السلام، كان في لقاء الله جل وعلا، و أخبره الله، أن قومه عبدوا عجلا، و أتخذوه إلها من بعده، فغضب موسى عليه السلام، و هذا فيه دليل، أن المسلم يغضب، و أن الغضب في هذه الحال، ممدوحا، و ليس مذموما، طالما كان لله جل و علا، و لم تُنتهك فيه حرمات.

أَسِفًا : الأسيف هو شدة الحزن، أي ممتلئاً غضبا و حزنا.

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ : أي، أمللتم إنتظار وعد ربكم الذى وعدنيه، فأقدمتم على عبادة العجل.

عجلت الأمر : سبقته، و العجلة : التقدم بالشيء قبل وقته.

و قيل : أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ : أي تقدمتم على أمره، فهو لم يأمركم أن تتخذوا عجلا، فهل إنتظرتم أمر الله جل و علا ليقضى أمره.

وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ : قيل أن هاون عليه السلام، كان له زوائد، فأمسكه موسى عليه السلام، منها، و من لحيته، يجره من شدة غضبه، لأنه قال لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ، فكأنما يقول له، أنت قصرت في الإصلاح، لم تقم بواجبك المأمور به، هكذا فهم موسى، و رأى، عليه السلام.

قَالَ ابْنَ أُمَّ : من الذى قال ؟ هارون عليه السلام، و ذكر الأم هنا؛ ليرققه.

إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي : أي استزلونى. وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي : أي، أوشكوا أن يقتلونى.

فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء : لا تعاقبنى بعقوبة تسر أعدائى.

الشماتة : هي سرور العدو بما يصيب العبد، لذلك كان النبى صلى الله عليه و سلم يتعوذ منها.

وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ : أي تُصَيرنى معهم بغضبك، و تجعلنى في كفة هؤلاء الظلمة.

ـ في هذه الآية دليل على أن الخوف على النفس يُسقط الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١))

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي : يقولون أنه من الأدب في الدعاء، أنه بدأ بنفسه، (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي)، و الحديث للرسول عليه الصلاة و السلام قال : (إبدأ بنفسك)، (و لأخى) لما تبين له عذره، دعى الله له معه، و تطييبا لخاطره، و أيضا حتى لا يُشمت الأعداء، فهم رأوه و هو يجذبه و يشده، فإذا رأوه يدعو له، يتحسروا.

وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ : أي إجعل رحمتك تحيط بنا، و تكتنفنا من كل جانب، و أنت أرحم الراحمين .

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢))

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ : الذين عبدوا العجل، سينالهم غضبٌ من الله جل و علا.

وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : أي هوانٌ يصيبهم في الحياة الدنيا، و ذلك بسبب أنهم عصوا الله جل و علا، و هذا ليس لهم وحدهم و لكن،

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) : كل مفترٍ، كل من تعدى حده، فإنه تصيبه من الذلة بمقدار تعديه، و لذلك قيل أنها لكل مفترٍ و مبتدع، إلى يوم القيامة، و لذلك يقول أنس : (ما من مبتدعٍ إلا و هو يجد فوق رأسه ذلة)، و قال سفيان بن عيينة رحمه الله : (كل صاحب بدعةٍ ذليل).

(وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣))

وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ : السيئات من الشرك بالله، و المعاصى.

ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ : أي تابوا و رجعوا، و أنابوا، لأن التوبة معناها الرجوع، و إذا كانت الرجوع، تكون الرجوع من الكفر لإلى الإيمان، و من المعصية إلى الطاعة.

إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ : فإن الله جل و علا، من بعد التوبة، و الإيمان، لغفورٌ رحيم، لمن تاب.

و هناك قول آخر في الآية : (وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا) ثم يقف، ثم (وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) أي هم يؤمنون أن الله غفورٌ رحيم، فتابوا من السيئات، ليغفر لهم، و يرحمهم.

(وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)

وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ : من الذى سكت ؟ الغضب، و لذلك يقولون، هذا ما يُسمى في علم البيان بالإستعارة المكنية، حيث شبه الغضب بإنسان يأمر و ينهى، فكأنما أمرهُ، إجذب رأس أخيك، إلق الألواح، كأن الغضب دافع.

وَفِي نُسْخَتِهَا : أي فيما كُتب فيها و نُسخ، أو فيما بقى منها، لأن الألواح بعضها تكسر.

هُدًى وَرَحْمَةٌ : ففيها هدايةٌ و فيها رحمة.

لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ : قيل أن : اللام في (لربهم) لام العلة، و المفعول محذوف، أي، يرهبون المعاصى، لأجل ربهم، لا للرياء، و لا للسمعة، و قيل : أن اللام هنا لتقوية المعنى، (لربهم يرهبون) و الفعل يرهبون، تعدى باللام. لربهم يرهبون أي يخضعون، و يخشون، و يخافون.

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥))

الله جل و علا وعد موسى عليه السلام، و كان بأن يأخذ معه سبعين رجلا من قومه.

وَاخْتَارَ مُوسَى : يقولون أنه إختار، الخير، فالخير.

لِّمِيقَاتِنَا : لمقابلة الله جل و علا.

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ : لماذا أخذتهم الرجفة ؟ المفسرون على أربعة أقوال في هذا الأمر، منها :

قيل : لأنهم تجرأوا على الله، و طلبوا من موسى أن يُريهم الله جهرة، عيانا، و هذا هو الأقرب.

قيل : أنهم اتهموا موسى، بقتل هارون، أي أن هارون مات قبل هذا الإختيار، فقالوا، أنت من قتلته.

قول ابن عباس : أنهم لم يزايلوا قومهم في عبادتهم للعجل، و لا نهوهم، فعوقبوا الآن.

أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ : الزلزلة، فصعقوا من هولها و هلكوا.

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ : هذا إسلوب إستعطاف، فموسى عليه السلام يستعطف الله جل و علا، يقول يا رب، هم– إن كانوا ممن عبد العجل– و لكن إخترت هؤلاء االسبعين، و هم خيار القوم، فماذا أرجع و أقول لقومى ؟ و كيف يأمنونى بعد ذلك ؟، فاستعطف الله جل و علا.

أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا : هذا إستفهام بمعنى الجحد، فهو ليس إستفهام، و إنما معناه، أنت لا تُهلكنا بما فعل السفهاء، الذين هم، عباد العجل.

إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ : إبتلاؤك، و إختبارك، و قيل الفتنة بمعنى العذاب.

أَنتَ وَلِيُّنَا : أي ناصرنا، و حافظنا، و متولي أمرنا.

فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا : أليست واحدة تكفي في الدعاء؟! إقتران الرحمة بالمغفرة، يعنى أن لا يوقعهُ في مثلها في المستقبل، فاغفر لنا ما سبق، و ارحمنا فيما هو آت.

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦))

وَاكْتُبْ لَنَا : إجعل، حقق، أوجب، و الله جل و علا يكتب على نفسه ما شاء، و يوجب على نفسه ما أراد، فلا أحد يوجب على الله، و هذا إعتقاد أهل السنة.

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً : كل ما فيه خير، من النعم، و التوفيق في العمل الصالح.

وَفِي الآخِرَةِ : حسنة الآخرة، أن يُغفر له، و أن يُرحم، و أن يُدخل الجنة.

إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ : هُدنا بمعنى، تبنا إليك، و رجعنا إليك، و لذلك يقول القائل : (يا راكب الذنب، هد، هد، و أسجد كأنك، هدهد)

و البعض يقول (هِدنا) بكسر الهاء و تعنى ملنا، أي ملنا إليك، و هي بنفس الدلالة في المعنى.

قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء : أي ممن يعمل بالأسباب الجالبة للعذاب.

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ : فرحمة الله جل و علا واسعة، فالله هو الرحمن، و الرحمن على وزن فعلان، و معناه الرحمة الواسعة، فرحمة الله تسع للجميع، فالكافر يحيى، و يُعافى، و يُرزق، و يتزوج و كل هذا من رحمة الله العامة، أما رحمة الله الخاصة فهى للمؤمن فقط.

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ : أي فسأكتبها في الآخرة، و أكتبها بمعنى أوجبها، أو تكون متحققة، لمن ؟

لمن أتوا بهذه الأوصاف :

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ : جمهور أهل العلم على أنها زكاة المال،و قال بعضهم لماذا خص الزكاة ؟ لأن اليهود بخلاء، فكان إخراج الزكاة منهم دلالة على الطاعة الكبيرة لله جل و علا،

وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ.

في هذا رد على المرجئة، لأن بعضهم يقول الإيمان قولٌ فقط، و بعضهم يقول الإعتقاد فقط.

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(١٥٧))

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ : مُحَمَّد صلى الله عليه و سلم.

النَّبِيَّ الأُمِّيَّ : قيل الأمى، الذى لا يقرأ و لا يكتب، و قيل الأمى، نسبةً إلى أم القرى، مكة لأنها موطنه، و قيل الأمى، لأنه نشأ في قريش، أو في أم العرب، فنسب إليهم، أمى، بمعنى أنه العربى الذى نشأ من أصلهم، و قيل الأمى، نسبةً إلى الأَم، بمعنى القصد، فيكون بمعنى المقصود، النبى الأمى أي المقصود.

كيف يكون نسب الأُمى (بالضم) إلى الأَم ؟ يقولون أن هذا من التغيير الذى يقع في النسب، و لذلك توجد قراءة أخرى (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأَمِّيَّ)، نسبةً إلى أَم، بمعنى قصد.

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ : مكتوبا عندهم، أي بإسمه و نعته، و وصفه، و لذلك القاسمى رحمه الله في تفسيره، عقد فصلا، أتى فيه من نصوص التوراة و الإنجيل، ما يثبت أن النبى صلى الله عليه و سلم مذكورٌ بنعته و وصفه في هذه الكتب.

يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ: المعروف ما عرف حسنه، و صلاحه في العقول السليمة، و الفطر المستقيمة، و الشريعة.

وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ : المنكر هو ما تُنكره العقول السليمة، و الفطر المستقيمة، و عُرف قبحه.

وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ : قيل الطيبات، المستلذات، التي لا ضرر فيها، و قيل، الطيبات بمعنى الحلال.

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ : المستخبثات.

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ : التكاليف الشاقة، لأن الإسلام كله يسر، و ليس فيه عسر، و فيه رفعٌ للحرج، و فيه رفع لهذه الآصار، من هذه الآصار، تحريم السبت، و تحريم الشحوم.

عَزَّرُوهُ : عظموه، و وقروه.

وَنَصَرُوهُ : أي نصروا النبى صلى الله عليه و سلم، على من يعاديه من الكفار.

وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ : المقصود بالنور، القرآن، الذى أنزل معه.

أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ : أي الذين يُحصلون مطلوبهم، و يفرون مما يرهبونه.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨))

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا : هذه دلالة على أن النبى صلى الله عليه و سلم، هو نبىٌ، و رسولٌ، لكل الناس، لأن بعض طوائف النصارى تقول، نحن نؤمن أنه نبى، و لكن، للعرب فقط، و هذا مكذب للقرآن، لأنه رسولٌ للناس جميعا.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ : هو المالك، سبحانه و تعالى.

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ : كلمات، من الجمع المضاف، فهي تفيد العموم، تحمل الكلمات، كل الكلمات الشرعية، التي هي الوحي، و الكلمات القدرية الكونية، تحمل المعنيين، و لذلك بعض المفسرين يقول، يؤمن بالله و كلماته، عيسى عليه السلام، لأن عيسى كان بكلمة الله.

الكلمات تنقسم إلى نوعين : كلمات كونية، و كلمات شرعية،

الكونية : كقوله تعالى : (كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) و (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) و قوله صلى الله عليه و سلم : (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بارٌ و لا فاجر، من شر ما خلق)، يقول ابن القيم، فهذه كلماته الكونية، التي يخلق بها، و يكون، و لو كانت الكلمات الدينية التي يأمر بها، و ينهى عنها، لكانت مما يجاوزهن الكفار و الفجار.

الشرعية : كقوله تعالى : (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ)، أي القرآن، (وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ)، أي بإباحته و دينه .

و قد إجتمع النوعان في قوله تعالى : (وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ)، فكتبه، كلماته التي يأمر بها و ينهى، و يحل و يحرم، و كلماته التي يخلق بها و يكون، فأخبر أنها ليست جهمية، تنكر كلمات دينه، و كلمات تكوينه، و تجعلها خلقا من جملة مخلوقاته، فهذا فيه الرد على الجهمية.

وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ : أي تقع لكم الهداية.

(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩))

أتت هذه الآية لتبين أن من قوم موسى عليه السلام طائفة مستقيمة، و هذا هو الإنصاف، فلم يكن كل قوم موسى سواسية.

أمة : أي جماعة.

يَهْدُونَ بِالْحَقِّ : يدلون غيرهم، و يدعونهم إلى هذا الطريق، و هم في أنفسهم مستقيمون أيضاً فهم يهدون، و هم مهتدون، فهم طائفة مستقيمة، دالة للناس على الحق.

وَبِهِ يَعْدِلُونَ : أي يحكمون بالعدل، أو يعدلون به في الحكم بين الناس.

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(١٦٠))

وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا : جعلهم الله جل و علا قبائل ، السبط في بنى إسرائيل كالقبيلة عند العرب، فقسموا إلى ١٢ سبط، أو إلى ١٢ قبيلة.

اسْتَسْقَاهُ : بمعنى طلبوا السقيا، الماء. فَانبَجَسَتْ : بمعنى إنفجرت.

ما الفرق بين (فانفجرت) و (فانبجست)

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ : أي لا إختلاط بينهم في المشرب، كل سبط له عين يشرب منها، حتى لا يقع النزاع.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ : من نعم الله عليهم، أن السحاب كان يعلوهم فيسير معهم أينما ساروا.

وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى : عندما طلبوا الطعام، أتاهم رزقهم من هذه الأصناف الشهية بلا تعب .

(المن): قيل أنه شيء يشبه الصمغ حلو الطعم.

(السلوى) : طائر يشبه السمان .

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ : بإيقاعها في موارد الهلكة.

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١))

الْقَرْيَةَ : قيل أنها بيت المقدس.

وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ : أي ثمرة تخرج من هذه القرية، كلوا منها، هنيئة طيبة لكم.

و أمروا بأمور منها:

وَقُولُواْ حِطَّةٌ : أي أدعو الله جل و على بقولكم، حط عنا خطايانا،و استغفروه، توبوا إليه.

وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا : أي خاضعين لربكم.

نغفر لكم خطيئاتكم و سنزيد المحسنين، فما الذى حدث ؟

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ)

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ : بدلوا القول، قيل لهم قولوا حطة، فقالوا، حنطة، أو حبة من شعير.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء : أي عذابًا من السماء.

بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ : بسبب ظلمهم.

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)

يقول الله جل وعلا لنبيه ﷺ أن اسأل اليهود تذكيرا لهم بما عاقب الله اسلافهم عن قصة القرية.

والسؤال هنا : تقريرا لهم وتوبيخ لهم .

فقل لهم لا ينبغي أن تكونوا مثلهم بل توبوا إلى الله .

س–ما شأن هذة القرية؟

ج–قال حاضرة البحر : أي مجاورة للبحر وتقربه وقيل على شاطئه .

إذ يعدون : أي يتجاوزون حدود الله بصيدهم الأسماك في يوم السبت الذي حرم عليهم أن يعملوا فيه ، فالله جل وعلا حرم عليهم العمل في هذا اليوم ففسخوا . فابتلاهم الله بهذا الأمر .

س–ما هو هذا الأمر الذي ابتلاهم به الله ؟

ج–إذ تأتيهم حيتانهم (الأسماك) يوم سبتهم شرعا . وفي باقي الأيام لا تأتيهم الأسماك .

س–لماذا هذا حدث ؟

ج–قال :"كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون" . لأنهم خرجوا عن طاعة الله وارتكبوا المعاصي بالإحتيال .

س–كيف احتالوا ؟

ج–حيث يوم السبت حرمت عليهم الصيادة والعمل والأسماك لا تأتي إلا في يوم السبت ، فكان ينبغي عليهم ليعرفوا هل الأسماك تعرف أيام الأسبوع ؟؟ أم أن المسألة هي عقوبة قدرية من الله ، لأنه هو الذي سخر هذة الأسماك . فلو انتبهوا لذلك لاتعظوا ولكن لم ينتبهوا لغاية فسقهم .

وكان احتيالهم أنهم أتو في يوم الجمعة فوضعوا شباكهم في حفرة كبيرة حفروها ،فإذا أتى السمك في يوم السبت وقع في هذة الشباك ولا يخرج منها ثم يأخذونها في يوم الأحد ، فهم احتالوا فوقعوا في الحرام .

س–هم اخذوا السمك الأحد وليس السبت إذن لم يعددوا السبت ، فكيف ذلك ؟

ج–بل هم اعددوا . وذلك بأن الصيادة وقعت بسبب فعلهم هذا، وفي هذة الحالة هم قد اصتادوا فعلا . ولذلك عقبوا .

وهنا هداية :

بأن الفسق والمعاصي سبب من أسباب ضيق الرزق . وذلك كان الحلال لهم ستة أيام والمحرم يوم واحد فبفسقهم أصبح العكس والحلال قد ضاق .

وهنا علاقة طردية :

بين الرخاء والأقتصاد وبين الذنوب والمعاصي . قال تعالى:"وضرب الله مثلا قرية كانت مؤمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا " فما الذي حدث :"فأذاقها الله لباس الجوع الخوف" فتبدل العيش من الرغد إلى الجوع وتبدل الأمن إلى خوف لماذا؟؟ قال:"بما كانوا يصنعون" أي بسبب صنيعهم السيئ وفسقهم وخروجهم عن طاعة الله .

شرعا: أي ظاهرة تشق عُباب الماء رافعة زعانفها .

لا يسبتون : أي في أي يوم غير يوم السبت .

(وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

هنا انقسم المجتمع في هذة القرية إلى ثلاث فرق :

١-قسم اعتدا ونصب الشباك وارتكب محرما

٢-وقسم أمر ونهى .

٣-وقسم لم يأمر ولم ينهى ولكن كان يخزل الأمر الناهي أنه لن يجدي نفعا في أمره ونهيه .

س-لماذا قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم ؟

ج-معذرة إلى ربكم والعذر هو الذي تبطل به المواخذة بسبب الذنب أو التقصير .

- ولعلهم يتقون . فلعلنا نكون سبب أنهم يتقون .

ولعل هنا للرجاء . ولإحداث هذا التغير يكون ما يسمى عند علماء التفسير النكاية(أي أثر وصدع) وهذا بأنكار المعاصي من أهل الانكار والأمر والنهي . ومن شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (القدرة) .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية بالواسطية : اننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر على وفق الشريعة .

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

فهنا نجت الجماعة التي أمرت ونهت . وهلك الذين ظلموا.

وهنا ذكر مآل فرقتين وسكت عن الثالثة :

فرقة ناجية وهي الناهية .. وفرقة عذبت وهي التي وقعت في المنكر والفسق.

والثالثة سكت الله عنها وهنا فائدة : فالجزاء من جنس العمل .

فالما سكتوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سكت الله عن ذكر مآلهم ولذلك كانت هذة الآية كانت تفزع ابن عباس ﷺ وكان يقول كنا نرى أشياء ولم ننكرها . فتشاور معه عكرمه وأخبره أنها نجت (الفرقة التي سكت الله عن ذكر مآلها) وذلك لعدم ذكر أنها عُقبت .

ولكننا لم نجزم بذلك وهذة الفرقة حالها حال تردد وفي خطر ولكن الراجح ما قاله عكرمة واخذ به ابن عباس

نسوا : أي اعرضوا وتركوا .

العذاب البئيس : أي الشديد .

يفسقون: أي يخرجون عن طاعة الله ويصرون على المعصية .

(فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ)

عتوا : أي تجاوزوا الحد وتمردوا في عصيان الله تكبرا وعنادا .

خاسئين : أي ذليلين . وكانوا قردة ذليلين بقوله تعالى كن فيكون، ولكن أين هؤلاء القردة؟ ماتوا ولم يبقى لهم نسلا .

وذلك في حديث مسلم في كتاب القدر : من حديث أم حبيبة ﵂ ، وفيه ذكر عنده القردة قال مسعر وأراه قال والخنازير من مسخ فقال إن الله لا يجعل لمسخ نسلا ولا عقبة وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك ، فبعض الناس مسخوا قردة (اليهود) وبعضهم مسخوا خنازير (النصارى) فالممسوخ لا نسل له ولذلك لا نقول اليهود والنصارى احفاد القردة والخنازير إنما نقول أخوان القردة والخنازير .

كما أنه يوجد مسخ داخلي "عبد الطاغوت" . كما قال ﷺ " قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس " .

فيقول الحسن: " والله ما لحوم هذة الحيتان بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين "

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

مجاهد رحمه الله يقول: إن الآية عامة وإن نزلت في اليهود ، فالنصارى معهم بمعاصيهم .

وهذا الإذلال له صور ومنها:

الجزية – المسكنة – الخراج – القتال حتى يسلموا أو يعطوا الجزية .

وكل هذا كان على اليهود عقاب في الدنيا قبل الأجرة مع ذلك فإنه غفور رحيم .

غفور رحيم : تفيد التخصيص ، وهذا خاص بأهل الإيمان لأن الله عز وجل قال" بالمؤمنين رحيم " .

هذة الآية بعض أهل العلم يقولون أنها مطلقة ولكن تقيد بأحدي شيئين :

–بتوبة من تاب وهذا لأنه ختم الآية بقوله " غفور رحيم".

–أن يكونوا في جوار دولة قوية تحميهم وذلك في قوله " ضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ".

تأذن : أي أعلم أو وعد أو حكم ، وأصل التأذن من الأذان أي الأعلام على سبيل الحتم والوجوب .

ليبعثن : أي ليسلطن على اليهود من يذلهم ويهينهم في حياتهم الدنيا إلى يوم القيامة .

غفور: أي يستر الذنب ويرحم لمن تاب منهم .

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

س–لماذا ابتلاهم الله بالحسنات والسيئات ؟

ج–لعلهم يرجعون .

قطعناهم : أي مزقناهم .

أمم : أي طوائف .

الصالحون : أي القائمون بحقوق الله وحقوق عباده .

ومنهم دون ذلك : أي المقتصدون والمسرفون على أنفسهم بالمعاصي .

بلوناهم : أي أختبرناهم .

الحسنات : أي اليسر والغنى والصحة .

والسيئات : أي العسر والفقر والمرض .

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ)

س–أي أتى من بعد هؤلاء أقوام خلفتهم السوء يأخذون عرض الأدنى . لماذا؟

ج–رشوة لتحريف الكتاب لقوله :" إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل".

س–وما العلة هنا ؟

ج–أن اليهود يقولون أننا سيغفر لنا وهذا لأنهم يقولون أننا شعب الله المختار وهم ابناء الله وأحباؤه ، فسيغفر لهم وهذا في اليهود والنصارى ، حيث أن النصارى عندهم عقيدة الصلب والفداء حيث أن المسيح صلب من أجل البشرية فمن يؤمن به كل ذنب وقع ويقع منه غفر له .

س–ما الدليل على دراستهم الكتاب؟

ج–قوله "ودرسوا ما فيه" .

خلْف : أي تطلق على التابع بسوء .

ورثوا الكتاب : أي التوراة .

العرض : أي المتاع الدنياوي الرديء الذي لا قيمة له .

عرض مثله : أي متاع دنيا زهيد أخر يأخذوه .

درسوا ما فيه : أي تدارسوه فعلموه .

(وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ)

وهداية الآية :

أن من صفات المصلح أنه يتمسك بالكتاب وأنه يصلي ، وهذا شأن عظيم للصلاة والمحافظة عليها

يمسكون : أي يتمسكون بالكتاب أي علم ما فيه ودراسته ومعرفتة.

(وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

س–متى نتق الجبل فوق بني اسرائيل؟

ج–عندما رفضوا التوراة وأحكامها .

نتقنا: أي رفعنا فوق بني اسرائيل الجبل .

ظلة : أي سحابة تظل رؤسهم .

ظنوا : أي أيقنوا أنه ساقط عليهم .

ما أتيناكم : أي أعطيناكم .

بقوة : أي بجد وأجتهاد وبعمل ما فيه

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)

–أي أخرج ذرية بني أدم من ظهر أدم جميعا وذلك في حديث الميثاق" الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته، أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي شيئا". والاحاديث في ذلك صحيحة ومتواترة أن الله جل وعلا مسح ظهر أدم وأخرج كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ثم أشهدهم على أنفسهم ، ألست ربكم قالوا بلى شهدنا –ألست بربكم : وفيها بيان أن الألوهية والربوبية كلاهما متلازم، أي أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، و توحيد الألوهية متضمن توحيد الربوبية، فكل إله رب وكل رب يستلزم أن يُعبد.

فعند سؤال القبر تُسأل من ربك أي من كنت تعبد . لقوله " اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا " . وأربابا تعني ألهة.

وفي بعض التفاسير: ألست بربكم قالوا بلى أنت ربنا . والذي جعلنا نفسر رب بالإله :

ذكر في الأحاديث ومنها للشيخان ، أن رسول الله ﷺ قال:" يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرايت أن كان لك كل ما على الأرض من شئ لكنت مفدياً ، فيقول نعم . فيقول قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر أدم ألا تشرك بي شيئا فأبييت إلا أن تشرك " فالميثاق أخذ على العبادة والألوهية .

س–قالوا بلى شهدنا: فشهدنا هنا بالحال ولا بالمقال؟

ج–شهدنا بالحال والمقال معا . ويمكن أن تأتي الشهادة بالحال فقط على كان للمشركين أن يعمروا مساجد ، تجد الله يشهدهم على أنفسهم بالكفر أي على حالهم أي أنهم يصرفون العبادة لغير الله .

س–فلماذا لم يقول" ألست بألهكم " مع أن الألوهية متضمنة الربوبية؟

ج–لأن هنا ذكر لمسألة الخالق فهذا أبلغ لأنه في مقام الخلق والامتنان عليهم بنعمه . فالربوبية أقرب لإجابة الدعاء.

فائدة:

-يأتوا الكافرين ناكرين هذا الميثاق والشهادة على الربوبية يوم القيامة ولذلك لم يكتفي الله بهذا الميثاق (الفطرة) ولكن أرسل الرسل لذلك لكي لا يكون للناس حجة على الله فالذلك أرسل الرسل لتأكيد على هذا الميثاق الأول . فمن يرفضه رفض هذا الميثاق ومن يقبله كما أنه أقر للمرة الثانية على هذا الميثاق .

ومن القواعد المرجحة من التفسير : أننا لا ننتقل إلى المجاز بالمعنى الحقيقي الذي يعمل به ويجوز إراده . فلا يؤتى به.

الذر : أي أصغر النمل .

أشهدهم : أي قررهم بإثبات ألوهيته وربوبيته . كما أشهدهم عل بعضهم بعضا على هذا الإقرار.

رب : أي إله المعبود الذي له صفاته لربوبيته كخلق والرزق والاحياء والإماته .

(أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)

-فهم هنا يحتجون بالتفريط لمن سبقهم ولكن حجتهم باطلة لإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلقت لكم عقول تعرفون بها الصواب من الخطأ ولذلك التكليف يكون مناطه بعد البلوغ . وفي هذا دليل أن التقليد والاحتجاج به لا ينفع .

المبطلون : أي تهلكنا بما فعل أبائنا .

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

نفصل الآيات : أي نبينها .

لعلهم يرجعون : أي يرجعون عن شركهم أو لا يرجعون إلى الميثاق الأول الذي أخذ منهم وهم في ظهر أدم ويقرون به بعد إقرارهم بالرسل.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)

فانسلخ تدل على :النزع بشدة ، وأنه ترك الحجاب الواقي له فمن يخرج عن العلم كمن انسلخ من جلده .

واتل عليهم : أي أخرهم .

نبأ : أي خبر .

فانسلخ : أي خرج من العلم بها وتركها و انخلع منها .

فاتبعه : أي أدركه ولحقه .

الغاوين : أي الهالكين ، الضالين .

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

-وهنا على هذا التفسير دلالة على : أن الرفع في الدنيا والأخرة رفع الكفروهو الذي تلبس هو به عندما انسلخ من العلم بالأيات ولو قبل الآيات لرفع عنه الكفر واتضحت بصيرته .

-أخلد إلى الأرض دلالة على : تكاسله عن الخير وبطئه فيه ، لقوله "مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الأخرة " ففي ذلك دلالة على ايثاره الدنيا على الأخرة .

-واتبع هواه وهنا دلالة : أنه فقد عقله بعدما فقد الوحي .

-كمثل الكلب يلهث: قال ابن قتيبة كل شئ يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث في حال في حال راحته وفي حال كلاله فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته.

س-ما العلة في أختيار الكلب ؟

ج-فإنه أردئ الحيوانات والأنتفاع به قليل جدا وفيه الكثير من قبيح الصفات ولاهث وراء مصالحه

أخلد إلى الأرض : أي خذل وما إلى شهوات الدنيا يؤثر دنياه على أخرته ولكنه أخلد إلى الأرض ولا يتحرك .

اتبع هواه : أي أصبح ذليلا لهواه.

فاقصص : أي أخبرهم بتلك الأخبار جاء أن ينزجروا ويرجعوا عن الضلال .

(سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨))

س-فهو المهتدي. لماذا؟

ج-لأنه وفقه الله لم يجد من يضله فيختار طريق الله المستقيم.

يهدي : أي يوفقه للهداية .

يضلل : أي يخذله الله فيحيد عن صراطه ويضل لزيغه عن الطريق المستقيم .

الخاسرون : أي الخُسران المبين وأعظم خسارة أن يخسر الإنسان نفسه وأهله .

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ)

لجهنم : اللام هنا تسمى لام العاقبة . أي عاقبتهم لجهنم بسبب فعلهم .

س-بل هم أضل . لماذا هم أضل من الأنعام ؟

ج-وذلك لأن الأنعام تعرف مصلحتها التي سخرت لها أم هذ لا ينتفع بهذة الحواس والأمور. كما قال ابن القيم بل هو أضل من حمار أهله . لأن الحمار من مرة واحدة يرجع إلى الدار ولكنهم يضلون الطريق ولا يرجعون إلى الدار . ولقوله " صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ".

قوله كالأنعام : الكاف هنا تفيد التشبيه في جامع بينهما وهو عدم الأنتفاع والأنتفاع غير المصلحة فمثلا بعض الأنعام لا يروا الألوان ولا يفهمون معنى الكلام ومنهم لها أعين ولكن لا ترى وبعضها لها أذن ولا تسمع فهم مثلهم في عدم الأنتفاع ولكن الأنعام أفضل لمعرفتها مصلحتها .

والقاعدة تقول :

أن الأمر الذي لا ينتفع به كالمعدوم .

ذرأنا : أي انشأنا أوخلقنا وسخرنا أو هيئناهم لها وبعمل أهلها يعملون .

لا يفقهون : أي لا يعقلون .

لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون : أي البصر والسمع المنتفع به .

(وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

لله : أي له وحده لا غيره . وهنا تقديم الجر والمجرور يفيد (التخصيص).

الحسنى: على وزن فعلى وهي صفات تدل على الأمتلاء ، أي الصفات الكاملة . البالغة في الحسن غايته .

ادعوه : أي أعبدوه بها وتوسلوا بطلب ما تريدون بها .

والدعاء نوعين:

وهي دعاء طلب: أي يطلب بها ما يريد.وهذا توسل واجب، فمثلا سورة الفاتحة كلها توسل إلى الله بأسمائه وصفاته .

ودعاء عبادة : أن الإنسان يتعامل مع الأسماء والصفات فينزلها منزلتها الائقة بها ويتعامل مع كل أسم بأثره وبذبك يكون تعبد لله بها .

يلحدون : أي يملون بها عن الحق وينحرفون بها .

س–كيف يلحدون بها ؟

ج–وذلك بتسمية غير الله بها ، فمثلا أشتق الكفار من أسم الله : اللات ومن المنان : منات ، ومن العزيز : العُزة .

–وذلك ايضا بنفيها عنه عز وجل ولا يثبتون لها الصفات اللائقة التي تضمنها .

–كذلك ايضا تحريف معناها مثل استوى يجعلها استولى .

سيجزون : أي العذاب المؤلم بما كانوا يعملون . بميلهم للباطل عن طريق الحق.

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٢))

سنستدرجهم : أي يفتح لهم أبواب الرزق كلما أرادوا المعصية .

كما قال الضحاك : كلما أرادوا معصية جددنا لهم نعمة ، قال تعالى :" فلا يغررك تقلبهم في البلاد ". لماذا؟ لأنهم قزم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا .

–والاستدراج : أن يظنون الناس أنهم في مأمن وهم ينحرفون إلى حافة الهاوية .

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

وأملي لهم : أي أمنيهم حتى يظنوا أنهم غير معاقبين ويظنون على كفرهم وعنادهم .

أن كيدي متين : أي أن كيد الله ومكره قوي، فيظهر لهم الإحسان وهو يريد لهم الخذلان.

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥))

فبأي حديث بعده يؤمنون : أي فبأين حديث بعد القرآن يؤمنون . بعد الحجج والبراهين والأدلة الواضحة التي لا وضوح بعدها .

فالقرآن الكريم : أتى بأدلة سمعية وأدلة نقلية وأدلة سمعية نقلية تخاطب العقول وتضع البديهيات ببساطة ويسر . فما الذي يجعلهم لا يؤمنون بهذا القرآن .

(مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

والضلال هنا : الضلال الكوني القدري بمعنى أن الله أضله لأنه لم يأخذ بالأسباب ويعمل بها .

فلا هادي له : أي لن تجد من يهديه .

ويذرهم في طغيانهم يعمهون : أي يتركهم ضلالهم يتحيرون فلا يهتدون إلى شئ .

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (١٨٧))

يَسْأَلُونَكَ : الفاعل هنا هو الواو، و الكاف، كاف الخطاب، في محل نصب مفعول به، تعود على النبى صلى الله عليه و على آله و سلم.

من الذى سأل ؟

القول الأول : الذى سأل هؤلاء المكذبون المتعنتون، يسألونه عن الساعة، و هذا القول هو أشبه بالسياق، لأن الحديث عن هؤلاء المكذبين بالنبى صلى الله عليه و سلم و بما جاء به.

القول الثانى : يسألك اليهود، و لكن هذا بعيد، بعيد لماذا ؟ لأن السورة مكية، نزلت قبل الهجرة، فالأقرب أنها في الكفار، أما مسألة اليهود فالنبى صلى الله عليه و سلم لم يحدث كلام بينه و بين اليهود إلا في المدينة، و معروف أنه

لم يكن في مكة يهود و لا نصارى، قد يقول البعض (لعل اليهود الذين قالوا للمشركين أن يسألوه) فهذا جائز، و لكن، سيكون السائل أيضا في نهاية الأمر، المشركين من كفار قريش.

و يقول بعض أهل التفسير، الذى سأل هو عتبة بن ربيعة، و هذا من باب ذكر الفرد، فيكون هو سأل، و غيره سأل، فيكون هؤلاء هم المكذبون، المتعنتون.

السَّاعَةِ : هي ساعة، و الساعة هذه، ساعة عظيمة، فارقة، لأن الساعة التي يفنى فيها هذا البناء، و يكون هناك بناءٌ آخر، يفنى بناء الدنيا بكل ما فيها، و هذا يدلنا على أن هذه الساعة، كانت تشغل بال الجميع،لأن الذى يتفكر في خلق هذا الكون يعلم أنه خلق ليفنى، و أنه في تكوينه الإبتدائى، محكوم عليه بالزوال، سيزول و لن يستمر و لن يبقى، و هناك بناءٌ آخر، يكون مرة أخرى، و هذا البناء، يدوم و يستمر، فهذه الساعة الفاصلة بين البنائين، و بين الدارين، دارٌ تفنى، و دارٌ تبقى، و لذلك من تفكر في هذه المسألة قادته إلى الإستقامة على دين الله جل و علا، لأنه يعلم أن كل ما في الحياة لذات فانية، منقضية، و لذلك لو استشعرتها حقيقةً، لهانت التضحية بها، قال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)، بعض أهل العلم يقول، ذكر قوله خالدين فيها، فنسخ قُبح الأولى، بجمال دوام الثانية.

أَيَّانَ مُرْسَاهَا : أين منتهاها ؟ متى وقتها المحدد لها.

قُلْ : قل يا مُحَمَّد، صلى الله عليه و سلم.

لاَ يُجَلِّيهَا : لا يظهرها، في وقتها المحدد، المقدر.

إِلاَّ هُوَ : إلا الله سبحانه و تعالى، فالعلم عنده وحده، لا عند غيره.

لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ : هذا اللإستثناء، و الإستثناء كما يقولون، معيار العموم، أي أن الكل ينتفى عنده المعرفة بوقتها، إلا الله سبحانه و تعالى، و هذا ما يدل عليه هذا الإستثناء، لأن بعض الناس يأتي على الحديث، (ما المسئول عنها بأعلم من السائل)، يقول بأعلم، أي عندك علمٌ، و عندى علمٌ، و هذا كذب، لأن علمها (عند ربى)

ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ : أي ثقل علمها، لماذا ؟ لأنها خفية، و كل أمر خفى فهو ثقيل، ثقلت في السموات و الأرض لأنهم لا يعلمون وقتها.

لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً : بعتة أي فجأة، فتأتى فجأة.

كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا : الحفى، إما أنها بمعنى الملحف، من الإلحاف، فالملحف، المبالغ في السؤال حتى يعرف وقتها، فهو حريصٌ عليها، حريصٌ على العلم بها.

و قيل كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا : من الحفاوة، أي بينك و بين الله مودة، فيكون قد أخبرك بها.

القول الثالث: حفى من الحفاوة و لكن معناها كالتالى : يسألونك عنها، كأنك حفى، عنها هي المأخرة، كأنك حفيٌ، أي كأنك بارٌ بهم، بينك و بينهم مودة، فستعطيهم الجواب.

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ : هذا نوع من القصر و التخصيص، بإنما، قصر ما بعدها على المستثنى، قصرا تاما، أي علمها عند الله وحده، لا يعلمها إلا الله جل و علا.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ : لا يعلمون ذلك.

(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨))

قل لهم، لا أملك لنفسى نفعا و لا ضراً، أي لا أملك قدرة، على جلب نفعٍ، أو دفع ضرٍ عن نفسى، إلا أن يشاءه الله جل و علا، و هذا كما في قوله تعالى: { وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} ، فكل ما يقع من مشيئة العبد، إنما هي من مشيئة الله جل و علا.

وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ : أي لا أعلم الغيب.

لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ : لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تجلب الخير، و تدفع عنى المفاسد.

إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ : النذير، هو الذى يُعلم بأمر مخوف.

وبَشِير : البشير إذا أتت مع النذير، يُبشر بأمر يحبه الناس، من الثواب الجزيل و الجنة.

لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ : هل هو بشيرٌ و نذيرٌ، لقوم يؤمنون فقط؟ هم المنتفعون بالبشارة و النذارة، و إن كان نذيرا لغيرهم، و هذا فيه نفى ملك هذه الأمور للنبى صلى الله عليه و سلم، الأمور كلها بيد الله جل و علا.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ(١٨٩))

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا : هذه الآية تحتاج إلى دقيق فهم.

و سنقف معها وقفتين:

المعنى الأول: هو الذى خلقكم من نفسٍ واحدة، النفس الواحدة هي آدم عليه السلام، و جعل منها زوجها، حواء. لماذا قال ليسكن إليها؟ و السكون هنا، سكونٌ عام، سكونٌ بالمودة و الرحمة، و هذا الأُنس و الطمأنينة، أن يحدث هناك أنس و طمأنينة، لأنها منه، فيحدث بينهما تفاهم و ترابط، و هذا السكون المعنوى، و سكون آخر من حيث الشهوة، و هذا سكونٌ خاص لا يوجد له نظير، هذا كله سكون، و هذه آية من آيات الله جل و علا، و لذلك قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً).

من أنفسكم : أي من جنسكم، أزواجا لتسكنوا إليها، لأنه لو كانت الزوجة من غير الجنس لا يحدث السكون، و هذه من نعم الله جل و علا، أن الزوجة من جنس الزوج.

وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً : من الذى جعل بينهم مودة و رحمة؟ إنه الله جل و علا، ليتم السكون، لذلك قال تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، آيات واضحة بينة، تحتاج إلى التفكر من الإنسان، و خاصة معاشر المتزوجين، فيتفكروا أن زوجته من جنسه للمواءمة بينه و بينها، فيشكر الله جلا و علا على هذه النعمة، فالزواج نعمة كبيرة على الشخص، و لذلك يُعرفه الله بها في الآخرة، قال، ألم أخلقك و أزوجك، فالزواج نعمة، فيحمد الله عليها، و يسأل الله أن يجعل بينهما مودة و رحمة، و يسأل الله أن يُصلحها، و يدعو الله كثيرا بدعاء عباد الرحمن، (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ).

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ : أي هذا للجميع، ليس آية، أي حتى قوله تعالى (ليسكن إليها)، هذا عن الآدم، أما (فلما تغشاها) فهذا عن كل الجنس.

القول الثانى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ، النفس هنا هي الجنس البشرى، كما في قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ)، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)، أي من جنسكم، فالنفس هنا بمعنى الجنس، أي من جنسها، الذى خلقكم من نفسٍ واحدة، أي من جنسٍ واحد.

على التفسير الثانى الآيات كلها تسير سيرا واحدا.

أما على التفسير الأول، و هو المشهور عند المفسرين، و يكاد لا يُذكر غيره، النفس الواحدة، آدم عليه السلام.

فَمَرَّتْ بِهِ : أي استمرت به، لا تشعر به، و هذا يكون في بداية الحمل، لا تشعر به لخفته.

بعض القراءات تقول (فمَرَتبه)، مَرَت، من التمارى، تُمارى بمعنى أنها غير متيقنة، ليس عندها يقين، هل هي حامل أم لا، لا تستشعر ذلك.

فَلَمَّا أَثْقَلَت: أي ثقل حملها، و كبر بطنها، و كبر هذا الحمل.

دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ: الزوج و الزوجة، دعوا الله جل و علا، لئن أعطيتنا يا رب ولدا صالح الخلقة و الدين، لنكونن من الشاكرين لنعمك، و أغلب المفسرين هنا، على حمل الصلاح، على أنه الصلاح البدنى، و لكن الآية تشمل العموم، الصلاح البدنى، و الصلاح الدينى أيضا.

هما دعوا الله، و اشترطا شرطًا، لئن آتيتنا صالحا، الولد يخرج سليم، معافى، كامل البدن، كامل الخلقة، لنكونن من الشاكرين.

(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(١٩٠))

آتَاهُمَا : بمعنى أعطاهما.

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا : أي كما دعوا، مكتمل الخلقة.

جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا : أي سَيَرا لله شركاء فيما وهبهما، فعَبَدا ولدهما لغيره، و سمياه (عبد الحارث).

فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ: تنزه و تقدس، لأنه هو المنفرد سبحانه و تعالى بالربوبية و الألوهية، لا شريك له.

الإنسان يُخلق على الفطرة، فإما أبواه يهودانه أو ينصرانه، فجعلا له شركاء فيما آتاهما، و لذلك يقول الحسن، هم اليهود و النصارى، رزقهم الله أولادًا فهودوهم و نصروهم، و عبدوهم لغير الله عز و جل.

ـ هنا يذكر المفسرون قصة آدم و حواء، على سبيل أن كل الآيات على سياق واحد، عندما حملت حواء، فلما قرب الوضع، إذا بالشيطان يأتيها، فيقول سمياه (عبد الحارث)، و إلا سينشق بطنك و يخرج هذا الولد ميتا، فلم يستجيبا في أول الأمر له، فنزل ميتا، سقطًا، لم يكتمل، و في المرة الثانية أيضا هددهما، قال، سيخرج له قرنا سيشق به بطنك و يموت، فلما عصياه، حدث ذلك أيضا، ففي المرة الثالثة سمياه (عبد الحارث)، و هذه القصة مكذوبة، خرافة، كما يقول (ابن حزم)، بعض المفسرين كـ (ابن جرير) أوردها، و احتج بها في المجمل، و قال إن هذا الشرك، الذى هو شرك التسمية، هو من باب المعاصى، حتى و إن سُمى شركا.

و القصة روايتها ضعيفة سندا، فلا يستقيم الإستدلال، لذلك نقول أن الآيات لا يستدل عليها، إلا بالأحاديث الصحيحة، فإذا لم يثبت دليل صحيح، و خاصة أن فيه معصية تنسب لنبى من الأنبياء، و هو آدم عليه السلام، فإن هذا لا يصح، فهذه الرواية لا تصح سندا، و هناك نكارة في متنها، و ابن حزم ذهب إلى التكذيب، فقال، هي رواية مكذوبة، موضوعة، خرافة، و بعضهم قال، أنها وردت في التوراة و الإنجيل المحرفين، لأنهم يقعون في الأنبياء و لا يتورعون عن ذلك.

ـ لذلك لن نثبت سبب النزول، طالما كان الحديث ضعيفا، متهالك، و لا يُستدل به.

في هذه الآيات أيضا فائدة:

ـ أن الإنسان لا يعاهد الله جل و علا على فعل شيء، حتى لا يقع في تركه، فكثير من الناس يُعاهد، ثم لا يفعل، فالغالب أن الإنسان لا يفى، إذا عاهد الله بالعبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعم، و لذلك قال الله تعالى: (وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ)، فلا تعاهد، بل إذا أردت أن تفعل خير فافعله مباشرة.

و قد ورد في النذر المعلق: أن النبى صلى الله عليه و سلم قال فيه، أنه لا يرد من القدر شيئًا، إنما يُستخرج به من البخيل.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ(١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٢))

شَيْئًا: نكرة في سياق النفى تفيد العموم، أي ليس لهم قدرة على خلق شيء، لا تقديره و لا إيجاده.

وَهُمْ يُخْلَقُونَ: أي هذه الأصنام مخلوقة.

وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ: لا تستطيع هذه المعبودات نصر معبوديها، و لا نصر أنفسها، فعبادتها من دون الله، من السفه الجلى، و الحمق الغبى.

(وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ(١٩٣))

وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ: أي تدعو أيها المشركون هذه الأصنام، التي تتخذونها آلهة من دون الله إلى الهدى، لا يجيبونكم إلى ما تدعونهم إليه، و لا يتبعونكم.

سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ : فسواءٌ عندها، دعاءكم لها و سكوتهم عنها، لأنها مجرد جمادات لا تعقل، و لا تسمع، و لا تنطق.

و هناك قول آخر: إن دعوتم أيها المؤمنون هؤلاء الذين يعبدون الأصنام إلى الهدى، لا يتبعوكم، سواء تكلمتم أم لم تكلموهم لن ينتفعوا، لأنهم زاغوا، فأزاغ الله قلوبهم، كما في قوله تعالى: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ).

فهى قد تحمل على الأصنام، و تحمل على العابدين لها.

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(١٩٤))

هؤلاء إما أنهم يدعون أصناما مخلوقة لا تضر و لا تنفع، و لا تسمع، و لا تبصر، و إما أن يدعون عبادٌ لله جل و علا، كما كان الكفار يعبدون الملائكة، و يقولون بنات الله، و بعضهم كان من اليهود، يعبدون عزيرا، و النصارى تعبد المسيح، و كل هؤلاء عباد لله جل و علا.

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ(١٩٥))

أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا: هذا من باب التأنيب، في مسألة الأصنام، أي أن الله جل و علا يقول لهم، أيها العقلاء، أنتم تدعون أصنامًا أنتم أفضل منهم خلقةً، هل لهذه الأصنام أرجلٌ يمشون بها؟ لا.

أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ: لا يقدرون حتى على البطش، إن أرادوا هؤلاء الأتباع أن يبطش أصنامهم بشيء.

أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا: ليس لهم أعين أيضا، و الآذان معدومة، وسائل الإنتفاع كلها معدومة، فلا أرجل و لا يد تبطش، و لا عين تبصر، و لا أذن تسمع.

هؤلاء الشركاء أقل من عابديهم في الخلقة فكيف يعبدونهم، هذا سفه، هذا من قبيل الغباوة الحمقاء، و لذلك قال الله جل و علا لنبيه أن يقول لهم:

ادْعُواْ شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ : لا تنظرون: لا تُعطون مهلة.

لماذا؟ لأنه واثق، لما عليه من الحق، واثق في نصرة الله له، و في نفس الوقت يعلم ضعف هذه الأصنام، أنها لا تملك شيئا، لا تضر، و لا تنفع، و لا تستطيع أن تفعل شيء، و هذه الثقة العظيمة، كانت عند الأنبياء جميعا، كانت عند نوح عليه السلام، قال: (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)، هذه الثقة، إنما تأتى بعظيم التوكل على الله جل و علا، أن الذى يجلب النفع، و يدفع الضر، هو الله جل و علا، و لا أحد يملك لأحدٍ دفعا و لا ضرًا، إلا بإذن الله جل و علا، و قد قال تعالى في الجن و الشياطين: (وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ)، ما هو الإذن هنا ؟ الإذن الكونى.

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ(١٩٦))

لماذا قال :(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ) ؟

الولى: يأتي بمعنى الناصر، و الهادى، سبحانه و تعالى.

فالذى ينصرنى عليكم و على أصنامكم، هو الله جل و علا.

الذى نزل الكتاب: أنزل هذا القرآن.

وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ: هذه ولاية خاصة، و هذه الولاية تقتضى النصرة و التأييد، و في الحديث القدسى (مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ)،فالمؤمن ولى الله، و الله ولى المؤمنين،

و المؤمن ولى الله بمعنى المؤمن العابد (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ)، فولى الله بمعنى، بمعنى الذى يؤمن بالله جل و علا و يتقيه.

و الله و لى المؤمنين بمعنى، أنه ناصرهم، أي ولاية خاصة، فعندنا الولاية، ولاية خاصة للمؤمنين، و خاصة الخاصة، للأنبياء.

وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ : إذا كان الإنسانُ صالحا، بتمسكه بالكتاب، بطاعته لله، بالإنتهاء عن النهى، فإن الله يتولاه.

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ(١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ(١٩٧))

و إن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى الهدى، لا يسمعوا لكم، و لا ينظرون.

لا يسمعوا: لا يستجيبوا، فالسماع هنا، سمع إستجابة.

قد يكون من المشركين لأصنامهم، و قد يكون من المؤمنين للمشركين، كلاهما لا يستجيب.

وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ : إذا قلنا أنهم الأصنام، أي تراهم ينظرون إليك بأعين مصورة، و هي جمادٌ لا تبصر، و قد كانوا يصنعون تماثيل على هيئة بنى آدم، و حيوانات، و لها أيد و أرجل، و لكنها لا حياة فيها، و لا حركة، و العرب تقول، دارى تنظر إلى دارك، أي تقابلها.

بعض المفسرين يقول: من الممكن أن تُحمل على أنها،تراهم كأنهم ينظرون، و أسقطوا الكاف، كاف التشبيه، أي أنهم لا ينظرون أصلا، لا عندهم نظر، و لا عندهم بصر، و قالوا، كما في قوله تعالى: (وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى)، أي كأنهم سكارى، و تراهم ينظرون، أي كأنهم ينظرون.

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ(١٩٩))

خُذِ الْعَفْوَ : أي، إقبل أيها الرسول من الناس، ما سمحت به أنفسهم، الميسور من الأخلاق، لأن الناس كلها ليست أخلاقها واحدة، ما عفا، أي ما زاد، الميسور، و لذلك قد مرت من قبل في سورة البقرة، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾، العفو، الشيء الزائد عن حاجة الشخص.

وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ : ما هو العرف؟ هو كل قول و فعل حسن، تقررت في الفطر حسنهُ، تعرفه العقول السليمة، فالعرف قد تعارفت الناس عليه، و أصبح هناك إجماع على حسنه.

لو أن هناك شيء الناس يتعارفون عليه بينهم، و لم يأت فيه نهى شرعي، لا قُبح فيه، نأمر الناس به.

لماذا سُمي العرف، عرفا ؟ عرف الفرس، لأنه متتابع، فتجد شعر الفرس، كله وراء بعضه، و عرف الديك، مرتفع، متتابع، (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا) الملائكة عندما تُرسل متتابعة، فالعرف فيه معنى التتابع.

ما الفرق بين العرف و العادة؟

العادة، قد تُطلق على العادة الشخصية، و العادة الجماعية، فإن كانت عادة جماعية، فهي تساوى العرف، و إن كانت عادة شخصية، فهي تدخل في العادة، فالعادة أعم من العرف.

الأعراف الإجتماعية أحيانا تكون حاكمة، كيف؟ مثلا امرأة تزوجت بلا مهر، الزواج صحيح، و قد تُطلق، فماذا نفعل؟ نرى العرف السائد في المكان، فالأعراف ضابطة لبعض الأمور بشروط.

وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ: لا تقابلهم بجهلهم، فمن آذاك، فلا تؤذه، و من حرمك، فلا تحرمه.

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢٠٠))

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ: أي أحسست بوسوسةٍ، أو تثبيط عن فعل الخير.

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ : استعيذ: بمعنى إلجأ و احتمى، و إعتصم بالله، فمع العدو الشيطاني ليس لنا حل، إلا الإستعاذة بالله.

لماذا قال (إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ): فالذى يسمعك هو الله جل و علا، و الذى يعلم ما بك، هو الله جل و علا، و الذى يسمع وسوسة الشيطان و يعلم كيف يوسوس لك، هو الله جل و علا، فالجأ إلى السميع العليم، و لذلك كل الآيات التي جاءت في مقابلة الأعداء، إما هؤلاء الأعداء كانوا من البشر أو من الجن، فأعداء الجن، ليس لهم حل سوى الإستعاذة، و لذلك هذه الآية وردت ثلاث مرات بهذا المعنى، و كلها فيها الأمر بالإستعاذة فقط، و لذلك يقول النبي صلى الله عليه و سلم: (لا يزال العلم بالناس، حتى يقولوا، الله خلق الناس، فمن خلق الله، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله و ليتفل عن يساره ثلاثا، و لينتهى).

العدو الإنسي، هذا تنفع معه المصانعة، أي يصانعه، (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ).

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ(٢٠١))

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ: أي اتقوا الله جل و علا، بإمتثال أوامره، و إجتناب نواهيه، و بالإيمان به.

مَسَّهُمْ طَائِفٌ: المسُ، بمعنى الوسوسة، أصابتهم وسوسة الشيطان، فوقعوا في محظور.

طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ: أغلب المفسرين على أنه الغضب، الشيطان يظل يوسوس له حتى يُغضبه، فإذا غضب، تمكن الشيطان منه فيقذفه أينما أراد، فيقع في محرمات، و لذلك النبي صلى الله عليه و سلم قال في الحديث للرجل الذى أوصاه، (قال لا تغضب، أوصنى، لا تغضب، أوصنى، لا تغضب)، فكل مرة يكرر له، لا تغضب، و معناها لا تأخذ بأسباب الغضب، و مقدماته، و إذا غضبت، فانتبه إلى اللواحق التي تلحق هذا الغضب، فلا توقعك في محرم أو مكروه.

تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ: أي صحوا، و استقاموا على أمر الله جل و علا.

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ(٢٠٢))

أي إخوان الشياطين من الفجار و الكفار، لا يزالُ الشياطين يمدونهم في الضلال، ذنب من بعد ذنب، و لا يألوا الجميع جهدا، الشياطين بالإغواء و الإضلال، و لا الفجار من الإنس، بالإنقياد و فعل الشر، فهناك مادة فساد دائرة بينهم، عياذا بالله جل و علا.

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ(٢٠٣))

اجْتَبَيْتَهَا: إخترعتها، و إختلقتها من قبل نفسك، لا من عند الله جل و علا.

هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ: هذا القرآن بصائر، و حجج، و براهين من الله جل و علا.

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ: و هدى يهتدى أهل الإيمان به، و رحمة لمن إمتثل لما فيه من الخير، لقومٍ يؤمنون.

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٢٠٤))

فَاسْتَمِعُواْ لَهُ: أي فاستمعوا لقراءته.

وَ أَنصِتُواْ: أي لا تتكلم، و لا تنشغل بغيره.

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ: أي رجاء أن يرحمكم الله.

سماع القرآن رحمة، لماذا رحمة؟ لأن الآية قبلها (هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)، يهديهم، فيُرحمون بهدايته إلى الخير، فما أحوجنا للإستماع إلى القرآن، و قد كانت سنة، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال لي النبي صلى الله عليه وسلم اقرأ علي القرآن فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل قال إني أحب أن أسمعه من غيري.

(وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)

تَضَرُّعًا: بمعنى متخشعًا، متواضعا. خِيفَةً: خائفًا.

وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ: أي توسط، لا تجهر، و لا تخافت.

في وقتين:

الوقت الأول: بالغدو، و هو أول النهار.

الوقت الثاني: الآصال، و هو آخر النهار، قبل غروب الشمس.

لماذا هذين الوقتين؟ لأنهما وقت غفلة، الناس تغفل عن الذكر في هذين الوقتين، فهما وقت إنشغال.

(إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ(٢٠٦))

إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ: أي من الملائكة، على إختلاف أصنافهم، و أعمالهم.

لاَ يَسْتَكْبِرُونَ: أي هم ينقادون، و يذعنون لعبادة الله جل و علا.

وَيُسَبِّحُونَهُ: أي يُنزهون الله جل و علا.

وَلَهُ يَسْجُدُونَ: أي يسجدون لله وحده، (له) اللام، حرف الجر مع الهاء، تقديم ما حقه التأخير، يفيد التخصيص، و يسجدون له وحده، كلمة وحدهُ جاءت من هذا الإسلوب، الجار و المجرور أحقه أن يأتي بعد ركنى الجملة، الفعل و الفاعل، و لكن قُدم، تخصيص و قصر.

كذلك أيضا نستفيد، الإستمرارية في العبادة، لأن الآية ذكرت الكلام بالفعل المضارع (يسجدون، يسبحون) و الفعل المضارع يدل على الإستمرارية، أي يحدث هذا في الحال و الإستقبال أيضا.

و هذا السجود، من الملائكة لله جل و علا، سجود طاعة، و منا أيضا، سجود طاعة، و لذلك يحزن الشيطان الذى أُمر بالسجود فلم يسجد، على سجود بنى آدم، و في صحيح مسلم، عن أبي هريرة رضى الله عنه، (إذا قرأ ابن آدم السجدة ، فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي ، ويقول : يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود ، فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود ، فعصيت ، فلي النار).

عصمة الأنبياء

إن العصمة تدور في معناها اللغوى، وكذلك أيضا ورودها في كتاب الله جل و علا في أصل وضعها على المنع و الإمتناع، لذلك إذا رأيت كل الآيات التي وردت، سترى فيها هذا المعنى، و هذا كلام أهل التفسير و المفسرين، فمثلا في قوله تعالى: (وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)، يقول ابن جرير، أصل العصم المنع، فكل مانعٍ شيئا، فهو عاصمه، و الممتنع به معتصمٌ به، و منه قول الفرزدق: (أنا ابن العاصمين، بنى تميم)، و قال في تفسيره قول الله تعالى: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)، أي يمنعك أن ينالوك بسوء.

و قوله تعالى: (قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ)، يقول، سأصير إلى جبلٍ أتحصن به من الماء، فيمنعنى منه أن يغرقنى، و بقوله يعصمنى أي يمنعنى، مثل عصام القربة، الذى يشد به رأسها، فيمنع الماء أن يسيل منها.

و قوله تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً)،أي من ذا الذى يمنعكم من الله، إن هو أراد بكم سوءًا في أنفسكم.

و في قوله تعالى: (مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)، و قوله: (لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ)، و قوله: (مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ)، كل هذا يدور حول المنع، المنع و الإمتناع، و هذه المادة عليها كلام أهل التفسير و كذلك أيضا وضعها اللغوى، يدل أيضا على المنع و الإمتناع.

مواقع العصمة

الأمور التي تقع فيها العصمة:

ـ الأنبياء جميعا معصومون من الكذب بالإجماع، لو أنهم جاز عليهم الكذب، لكان للكفار حقٌ في تكذيبهم، فهم لا يكذبون، فالكذب بالإجماع منفى عنهم.

ـ الأنبياء معصومون قبل البعثة و بعدها، من الكفر، بالإجماع.

نقسم الذنوب إلى صغائر و كبائر:

أما الكبائر:

قال القاضي عياض، أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش، و الكبائر الموبقات، و صرح بهذا الإجماع (المازرى)، و هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن علي بن عمر بن مُحَمَّد التَّميمي المازَري، إمام المالكية في عصره، و كتابه اسمه (المعلم بفوائد مسلم)، أيضا صرح بالإجماع فيما نقله عنه النووي في قوله، فهو صلى الله عليه و سلم معصوم من الكبائر بالإجماع، و هذا شرح (النووي) على مسلم(٥٨/٧)، نقل (النووي) الإجماع، و نقل أيضا (ابن عطية) في تفسيره، حيث قال، و أجمعت الأمة على عصمة الأنبياء من الكبائر، و من الصغائر التي فيها رذيلة،

و ممن صرح بعصمة الأنبياء من الذنوب أيضا، إمام الحرمين، و قال، و تجب عصمتهم عن المعاصى و الذنوب المؤذنة بالسقوط و قلة الديانة إجماعًا.

قسم العلماء الصغائر إلى نوعين:

صغائر خسة:

التي ينسلك بها فاعلها مع الأراذل و السفلة، لإشعارها بدناءة الهمة، ووَضاعة النفس، مثل سرقة شيء تافه، و تطفيف القليل، و هذه لا تجوز أيضا في حقهم.

و قد نقل (الشوكانى) في (إرشاد الفحول)، عن الأصوليين أنهم حكوا الإجماع على عصمتهم بعد النبوة مما يزرى بمناصبهم، كرذائل الأخلاق، والدناءات، وسائر ما ينفر عنهم، وهي التي يقال لها صغائر الخسة، كسرقة لقمة، أو التطفيف بحبة، حتى هذه ممنوعة إجماعا.

و قال بذلك (ابن عطية) بنقل إجماع العلماء على عصمة الأنبياء من الصغائر التي هي رذائل.

صغائر غير الخسة:

و هي التي لا تُشعر بنقصٍ، و لا تلحق بفاعلها معرة.

و هذه فيها ثلاث أقوال، ذكرهم (القاضي عياض) : أن العلماء على ثلاث فئات:

الفئة الأولى:

أجازت صدور هذه الصغائر عن الأنبياء، ووقوعها منهم، و قد نسب هذا المذهب إلى جماعة من السلف، وغيرهم من الفقهاء، والمحدثين، والمتكلمين، وذكر منهم (أبا جعفر الطبرى)، ونسب (ابن حزم) هذا القول في (الفِصَل) إلى ابن فورك، ونسبه السعد في (شرح المقاصد) لإمام الحرمين من الأشعرية، وأبي هاشم من المعتزلة.

الشوكانى قال، أنهم اختلفوا فيها، و لكن إذا جاز وقوعها عليهم، فهل وقعت منهم، أو لا؟

إذا قلنا أنه يجوز –الجواز العقلى– فهل وقعت أم لا؟

يقول، إمام الحرمين ، و أما الذنوب الصغائر، فلا تنفيها العقول، ولم يقم عندى دليل قاطع على نفيها، ولا على إثباتها، إذ القواطع نصوصٌ أو إجماع، و لا إجماع، إذ العلماء مختلفون على تجويز الصغائر بالنسبة للأنبياء، و النصوص التي تثبت حصولها قطعا، و لا يقبل فحواها التأويل غير موجودة، والأغلب عند الظن عندنا جوازها.

وقد تمسك القائلون بوقوع الصغائر منهم بظواهر من القرآن الكريم، و بعض الأحاديث الصحاح، التي ذُكر فيها ما يُشعر بوقوع الخطيئة من بعض الأنبياء، كحديث الشفاعة، فكل نبى يذكر خطيئته التي أصاب، وبورود طلب الإستغفار منهم، وطلب التوبة عليهم.

الفئة الثانية:

تقول بالجواز العقلى، و لكنهم توقفوا عن القول بالوقوع، فلم يثبتوه ولم ينفوه، لتعارض الأدلة عندهم، وعدم وجود قاطع في النصوص بالإثبات أو النفى.

الفئة الثالثة:

تقول بعصمتهم من الصغائر، كعصمتهم من الكبائر، و من هؤلاء الإمام (أبو حنيفة)، كما صرح به في (الفقه الأكبر) و هو كتاب في التوحيد، إذ قال، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزهون عن الصغائر والكبائر، وأقر ذلك شارحه، على القارى، و أسند الشوكانى في (إرشاد الفحول) هذا القول لأبى اسحاق الإسفرايني، نقلا عن (ابن حزم) في (الملل والنحل)، نقله عنه أيضا (تاج الدين السبكى) في (جمع الجوامع)، وقال هذا المذهب عنه،

وأسند (عبد القاهر البغدادى) هذا في المذهب إلى أهل السنة في كتابه (الفرق بين الفرق)،

وممن قال بهذا القول أيضا (ابن حزم) و حكاه عن سائر الفرق الإسلامية،

و عن (ابن مجاهد) شيخ الباقلانى، و (ابن فورك) وقال هذا الذى ندين الله تعالى به.

و استدلوا على عصمتهم بأحاديث، منها (ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين)، استدلوا بهذا الحديث، وقالوا ، وجه الإستدلال أن الإشارة بالعين، أخف ما يكون من الذنوب، ومن خلاف الباطن للظاهر، فهذه أقل شيء، و لا تكون في حق الأنبياء، و مع ذلك لم يقدم عليها النبى صلى الله عليه و سلم، بل أنكر على من قال له، ألا أومأت لنا بعينك، بقوله أنه ما كان لنبى أن تكون له خائنة الأعين.

و ممن صرح بالأخذ بهذا المذهب (تاج الدين السبكى) في (جمع الجوامع)، حيث قال: (الأنبياء عليهم الصلاة و السلام معصومون، لا يصدر عنهم ذنبٌ و لو صغيرةٌ سهوا)، و أسند (السفارينى) أحد أئمة الحنابلة، هذا المذهب إلى (الحافظ العراقى)، إذ نقل قوله: (النبى ﷺ معصوم من تعمد الذنوب بعد النبوة بالإجماع، و إنما اختلفوا في جواز الصغيرة سهوا، فمنعه الإسفراييني و القاضي عياض، و اختاره تقى الدين السبكى، و هو الذى ندين الله به).

قال (الشوكانى)، و اختاره (ابن برهان) وحكاه النووي في (زوائد الروضة) عن المحققين،

قال القاضي حسين، و هو الصحيح من مذهب أصحابنا –يعنى الشافعية–

و قال الفخر الرازى: و المختار عندنا أنه لم يصدر عنه الذنب حال النبوة البتة، لا الكبيرة و لا الصغيرة، و ساق في تفسيره أدلة عقلية و نقلية على وجوب عصمة الأنبياء.

هناك خلاف ونزاع شديد جدا فمسألة صغائر الخسة، فابن تيمية يعنف على من يقول أنها لم تقع، و الفريق الآخر يعنف جدا من يقول أنها وقعت، و الكلام كله، يخرج هل حالهم قبل الذنب و بعد الذنب، هل الكمال أنه لا يذنب، و كلها دائرة في هذا السجال النظرى.

و الأقرب و الله أعلم، ما رجحه الكثيرون من أنهم معصومون أيضا من الصغائر التي هي غير الخسة، كل الصغائر، سواء كانت خسة أو غير خسة، و الله تعالى أعلم.

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)